المرأة المسلمة وأمهات المؤمنين

مأمون غريب

٢١٠,٤
ع ٣ م

المرأة المسلمة
و
أمهات المؤمنين

مأمون غريب

أخبار اليوم
ادارة الكتب والمكتبات

الاخراج الفنى : اشرف حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن
نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا
رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى
تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ
رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾

« سورة النساء »

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ
وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ
أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾

« سورة الحجرات »

المرأة هي نصف المجتمع .
وكلما نالت المرأة حقوقها ، كان ذلك دليلا على تقدم هذا المجتمع .
وكلما كانت المرأة متخلفة ومحرومة من التعليم .. كان ذلك دليلا على تخلف المجتمع نفسه .
فلا تقدم ونصف المجتمع ينظر إلى النصف الآخر كأنه أقل منه وغير جدير بالمساواة ..
وقد عانت المرأة كثيرا في مختلف العصور قبل الإسلام .. فلا شخصية لها .. ولا حقوق .. ولا ينظر إليها إلا بعين الاحتقار . فكانت تباع وتشترى ومن حق الأب أن يعطيها أو لا يعطيها شيئا من الميراث بل في بعض المجتمعات كان له الحق في بيعها !!
وفي ظل هذا الهوان الذى عاشته المرأة في العصور القديمة.. باستثناء مصر القديمة . حيث كانت المرأة تتمتع بتقدير كبير من المجتمع .. في ظل هذه الأزمنة الغابرة لاقت المرأة من الهوان ما لا يمكن أن يتصوره انسان .

وفي ظل الإسلام عرفت الحقوق والواجبات طريقها إلى المرأة فلا يحق لأحد وأدها أو قتلها أو ارغامها على البغاء ولها حرية التصرف في مالها و اختيار شريك حياتها .. وهي ليست سلعة تباع وتشترى .

وفى ظل الإسلام شاهدنا المرأة مجاهدة من اجل دينها . ومهاجرة فرارا من أرباب الكفر ، ومناضلة فى ميادين القتال .. وقد أقرها الرسول العظيم عليه الصلاة والسلام فى كل هذه الحقوق .

فلا تمايز بين رجل ولا امرأة إلا بما يتناسب مع طبيعة كل منهما .

فالكل من طينة واحدة ..

— ﴿ كلكم لآدم وآدم من تراب ﴾ .

والعجيب عندما نرى صحوة اسلامية فى مختلف أرجاء العالم الإسلامي وانتشار ظاهرة الحجاب .. فإذا ببعض الذين لم يمس نور الإيمان قلوبهم يهاجمون الحجاب ، وكأن هذا الحجاب يحول بينهن وبين العلم مع ان معظم هؤلاء المتحجبات متفوقات فى الدراسة وفى الحياة العامة ..

والمرأة تريد أن تعلن من خلاله انها متمسكة بتعاليم دينها .. حريصة على شرف الانتماء إلى الإسلام .. أمينة على جسدها ..

والذين يهاجمون « الحجاب » لا يهاجمون العرى المتفشى فى الأندية والشوارع وحتى فى الجامعات .. وكأن الجرى وراء « الموضات » هو التقدم والحضارة والمدنية ..

مع أن الحضارة والتقدم والمدنية فى التمسك بالعلم ، والأخذ بالأسباب ، والوصول إلى مصادر

القوة فى الحياة . ولا علاقة بين الأخذ بأحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا والحصول عليها وبين الأزياء !

ولكنه الفراغ العقلى .. والتفكير العلمانى .. وانطفاء شعلة الإيمان فى النفوس هو الذى حدا بالبعض إلى الجرى وراء معارك كلامية لا تقدم ولا تؤخر .. ولا تفتح طريقا للمستقبل .. ولا تؤدى إلى شىء نافع ..

إن الإسلام عبّد الطريق أمام المرأة .. وفتح لها أبواب الكرامة ، وجعلها ندا للرجل .. وعندما كان القرآن يوجه حديثه للبشر كان يعنى الذكر والأنثى .

ونعرف حفاوة الإسلام بالمرأة ، ونحن نقرأ التاريخ الإسلامى فنرى عمر بن الخطاب ينهى عن المغالاة فى المهور ، وحاول أن يجعل الحد الأقصى للمهر أربعمائة درهم .. يومها وقفت امرأة تعترض على عمر .. محتجة بكتاب الله :

— ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ﴾ ..

هنا وقف عمر برهة وهو يقول : « اللهم اغفر .. كل الناس أفقه من عمر ! » ..

وقال كلمته الشهيرة : « أصابت امرأة وأخطأ عمر ! »

وقارىء كتاب الله يدرك ان الإسلام اباح للمراة المشاركة فى الحياة العامة .. فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الممتحنة)

وهذه الآية تدل صراحة على ان للمراة حق المبايعة فقد عاهدت الرسول على الالتزام بشرع الله .

ويروى الرواة ان عمر بن الخطاب عندما طعن واقترح ان يختار الصحابة واحداً من ستة عينهم وكان بينهم عبد الرحمن بن عوف الذى اثر ان يوفق بين الآراء المختلفة ، والا يكون هو احد المختارين .. كان من الذين استشارهم فى اختيار الخليفة الجديد النساء .

وقارىء الآية الكريمة :

— ﴿ يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ﴾ ..

يدرك أن القرآن لم يفرق بين الرجل والمرأة ، ولكن التفاضل بالتقوى لا الانتماء إلى جنس الرجال او جنس النساء . فالإسلام اعطى للمرأة من الحقوق ما لم تستطع ان تحصل عليه في احدث التشريعات الوضعية في مختلف ارجاء العالم .. وجعل لها بجانب الحقوق واجبات عليها ان تقوم بها .. فلا حقوق بلا واجبات ..

واهم هذه الواجبات هي الحفاظ على كيان الأسرة ، وتربية ابنائها على القيم الإسلامية النبيلة ، والمشاركة في الحياة العامة بما لا يخدش لها كرامة او حياء ، وفتح الطريق امام تطلعاتها العلمية .. فلها الحق في الوصول إلى ما تستطيع الوصول إليه من التحصيل العلمي .. وهذا التحصيل العلمي سوف ينعكس على اسرتها وعلى المجتمع بلا شك ..

و.. يوم نفهم ما قدم الإسلام للمرأة .. ويوم تعي المرأة دورها من خلال التصور الإسلامي .. فسوف يتحقق المجتمع السليم القوى .. الذى يبني الحياة .. ويبني الحضارة دون ان ينسى رحيق السماء .

مامـون غريـب

قبل الاسلام

بإشراق نور الإسلام اختفت أمور كان ينبغى لها أن تختفى . . وانتهت شرور حان لها أن تذهب إلى غير رجعة . . فالعقل الذى كان يتمسك به فلاسفة اليونان ، لم يضع حلولا لمشاكل البشر . . لأن العقل لا يمكنه إدراك ما وراء الحس . . وقدراته محدودة . . بل انه فى ظل الفلسفة اليونانية ظهر السوفطائيون الذين كانوا يرون أن الإنسان مقياس الأمور جميعا . . فالخير نسبى . . والشر نسبى . . وكل الأمور نسبية . . السرقة شر بالنسبة للمسروق . . وخير بالنسبة للسارق . . وفى ظل هذه الفلسفة اليونانية تلك عبدوا العقل . . ورأوا فيه المفسر لكل ظواهر الوجود . . وأن من خلاله يمكن أن نعرف ما وراء الحس ، حتى أن سقراط فيلسوف اليونان الكبير . . رأى أن الأجدر بالفلسفة أن تنزل من عليائها . . وأن تنزل إلى دنيا الناس . . فتحدث عن الرذيلة والفضيلة . . والقبح والجمال . . ورأى أن خير الأمور الوسط ، لأن الفضيلة وسط بين افراط وتفريط كلاهما رذيلة . . وقالوا عنه أنه أنزل الفلسفة من السماء الى الأرض . . بمعنى أنه جعلها فى دنيا الناس لا أن تجرى وراء الوهم . . وبالتالى لا ثمرة من وراء ذلك .

والسؤال ماذا فعلت الفلسفة اليونانية بالإنسان؟

انها حثته على التأمل النظرى . . إلى محاولة إعمال عقله . . إلى محاولة تفسير الحياة . . وإلى محاولة فهم العلاقات التى تربط بين الأشياء . . فكانت حزمة ضوء للفهم والمعرفة . . ولكن هذه الفلسفة لم تحل مشكلة الإنسان ، ولا رسمت له خطوط مستقبله وحياته . . وفى ظل هذه الفلسفة التى تعنى بالعقل وفى هذا المناخ الذى كانت تسوده هذه الأفكار عاش سقراط نفسه تعيسا . . فقد كانت زوجته متسلطة سامته سوء العذاب ومن هنا فقد كان يرى أن المرأة كالشجرة المسمومة ، من يقترب من ثمارها يموت !

وقد حوكم سقراط بتهمة افساد الشباب ، وحكم عليه بالإعدام ، وعندما قرر تلاميذه إيجاد وسيلة لتهريبه رفض ذلك وقرر أن يموت بالسم .

وكان الشاعر يوربيدس يقول : ملعون من لا يلعن المرأة !

وأفلاطون كان يعبر عن سعادته وغبطته لأنه خلق رجلا ولم يخلق امرأة .

فإذا اتجهنا إلى فارس وجدنا خليطا من الاعتقادات والآراء .. فهم يعتقدون أن هناك إلهين .. إله الخير وإله الشر وتمثل ذلك فى الزراد تشيه .

أما المانوية فقد كانت ترى أنه لا جدوى من الحياة ولا فائدة منها ، ولا داعى لاستمرارها وذلك بعدم الانجاب .

وانتشرت أيضا (المازدكية) نسبة إلى مزدك الذى دعا إلى شيوعية المال وشيوعية النساء .. ويمكنك أن تتخيل صورة لحياة لا ضابط فيها ولا رابط سوى ارضاء الغرائز .. والتمتع بالمرأة بلا قيود .. وأى وضع مهين للمرأة .. فهى مجرد وعاء للإنجاب .

فإذا انتقلنا إلى الهند حيث سادت البوذية التى ظهرت على يد بوذا (ولد ٥٦٠ قبل الميلاد) .. فقد كانت دعوة أخلاقية تحاول ربط الإنسان بالفضائل ، وقد أتت بمبادىء خلقية ولكن هذه المبادىء لم ترتبط بالإيمان بالله .. فقد كان ينكر الألوهية .. وهذا المبادىء التى نادى بها بوذا هى :

* لا تقتل أحدا
* لا تسرق ولا تغضب ولا تأخذ مالا لم يقدم إليك .
* لا تكذب .
* لا تشرب خمرا ولا تتناول مخدرا .

* لا تزن ولا تأت بأى أمر جنسى محرم .
* لا تأكل طعاما لم ينضج
* لا تتخذ طيبا ولا تثقل رأسك بالزهر
* لاترقص ولا تحضر مرقصا ولا حفل غناء
* لا تقتن فراشا وثيرا ، ولا تقتنن أرائك وطنافس ولا وسائد ولا حشايا مرفهة .
* لا تأخذ ذهبا ولا فضة .

ولكن هذه البوذية رغم ما جاءت به من أخلاقيات كان ينقصها الإيمان بالله . . فبوذا لم يكن مؤمنا بإله خالق للكون والحياة . . وكان هذا الزهد فى الحياة من خلال هذه الرؤى أمورا ليست واقعية لأنه ليس هناك دافع لتحقيق هذه المبادىء !

وكانت الكونفوشيوسية التى انتشرت فى الصين على يد كونفوشيوس امتدادا للبوذية فى الهند ، وكان يقول :

— أنا لا أعرف شيئا عن سر الإله ولكن أعرف الكثير عن تعاسة الإنسان ! .

فكانت دعوته رغم أنها دعوة إصلاحية إلا أنها تنكر وجود الله ، وتتنكر للفطرة الإنسانية السليمة .

أما الرومان فلم يكونوا أحسن حالا من الأمم الأخرى رغم مجدهم العسكرى ، فكان هناك التمايز بين الطبقات . . وهناك تمايز بينهم وبين الشعوب التى حكموها ، وقد اضطهدوا المسيحية حينا حتى أنهم كانوا يحرقون معتنقيها على يد « نيرون » فى روما ، كما قاموا بتعذيب أهل مصر تعذيبا رهيبا على يد « دقلديانوس » وظهر الخلاف الشديد بين المذاهب فى المسيحية عندما أصبحت المسيحية الدين الرسمى للإمبراطورية .

وفى ظل الإمبراطورية الرومانية كانت المرأة مجرد متاع للرجل لا وزن لها . . ولا قيمة . . وليس لها تأثير على الحياة العامة ، ولم يكن للمرأة أى حقوق على زوجها بل أن الرجل له كل الحقوق والسيطرة على المرأة . .

أما شبه الجزيرة العربية فكانت إلى حد ما لفقرها بعيدا عن مطامع الغزاة من فرس وروم . . إلا أنها تأثرت بما يجرى حولها . . أما كيف دخلتها عبادة الأوثان ، فيقول ابن اسحاق صاحب السيرة :

يزعمون أن أول ما كانت عبادة الأحجار فى بنى اسماعيل أنه كان لا يظعن ظاعن منهم حين ضاقت والتمسوا الفسيح فى البلاد إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم ، فحيثما وضعوه طافوا به طوافهم بالكعبة ، حتى أدى ذلك إلى أن كانوا يعبدون مااستحسنوه من الحجارة وأعجبهم ، حتى خلفت من بعدهم خلوف ، ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من الضلالات » .

وهناك رأى آخر يذكره الحافظ بن كثير أن ابن هشام قال :

حدثنى أهل العلم أن عمرو بن لحى خرج من مكة إلى الشام فلما قدم مآب من أرض البلقان وبها يومئذ العماليق رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ، قالوا له : هذه أصنام نعبدها فتمطرنا ، ونستنصر بها فتنصرنا ، فقال لهم ألا تعطونى منها صنما ، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ، فأعطوه صنما يقال له (هبل) فقدم به مكة ونصبه وأمر الناس بعبادته . .

وهكذا نرى كيف دخلت الأصنام إلى أرض العرب ، وكيف تبلبلت أفكارهم ، وان كان الحنين يشدهم إلى دين الخليل ابراهيم وابنه اسماعيل .

ويقول بعض المؤرخين أن الأصنام تكاثرت فى مكة ، حتى أنه أصبح حول الكعبة ٣٦٠ صنما . . ومن أشهر هذه الأصنام اللات والعزة ومناة وهبل .

ويقول لنا « جلوب » فى كتابه « الفتوحات العربية الكبرى » وهو يستعرض خريطة العالم وما فيه من عادات ومعتقدات قبل الإسلام : أن المسيحية واليهودية كانتا منتشرتين إلى حد كبير بين العرب فى حقل الدين ، وكان بين المؤمنين بها عدد من القبائل البدوية التى يدين بعضها بالنصرانية اسما على الأقل ، أما الغالبية فكانت لا تزال تعبد أرواحا لا عد لها ولا حصر ، تقيم فى الصخور ومسايل المياه والأشجار وتقدم تقديسها إلى حد ما إلى الشمس والقمر والنجوم ولكنها تعترف فى الوقت نفسه ، وبطريقة يشوبها بعض الغموض بوجود دين سماوى أعظم يهيمن على الكون .

وقدر لهذا الشعب ، المتميز بالقسوة والتعود على شظف العيش وعلى آثارة الفتن ، والذى يضم مجموعة من العقائد الدينية المختلفة ، وتسوده الفرقة والتجزئة نتيجة فروق شاسعة على الصعدان الثقافية ، أن تخلق تياراً عاصفا من المحاربين الملتهبين حماسة ، والمتقدين حيوية وإيمانا ، . . والذين شاء لهم قضاؤهم أن يبدلوا تاريخ العالم بأسره . . وقدر لهذا التفجر البركانى أن يتزامن مع عهد من الضعف المتزايد والاضطراب فى كل من امبراطوريتى فارس وبيزنطة . وقد نجمت هذه الحالة من الإجهاد الذى أصاب الدولتين الكبيرتين من الدمار الذى لحق بكلتيهما من جراء الحروب التى لا نهاية لها ، والتى شنتها الواحدة منهما على الأخرى . »

وواضح من العرض السريع لما يجرى على الساحة فى مختلف أنحاء العالم قبل ظهور الإسلام ، مدى الهوان الذى كان يتعرض له

الإنسان سواء كان ذكرا أم أنثى فى ظل حضارات مبلبلة الفكر . . مشتتة الخاطر . . ومدى الهوان الذى تشعر به بصفة خاصة المرأة لأنها الأضعف . . !

أما فى شبه الجزيرة العربية فقد كان وضع المرأة مهينا للغاية . . كانت هناك بعض القبائل التى تئد الأنثى لا لشيء إلّا الخوف من الفقر أو العار .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩ ﴾

(سورة النحل)

وقد عرف العرب تعدد الزوجات كالأمم الأخرى . . وكانوا يتسرون بالإماء أيضا . . وكثيرا ما كانوا يجبرون ما عندهم من الإماء على البغاء بغرض كسب المال . . تلك الحقيقة التى عبر عنها القرآن الكريم بقوله :

﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردنا تحصنا ﴾

وقد عرف العرب ما يسمى بأصحاب الرايات الحمر ، وهى الرايات الحمراء التى تعلق على أبواب الدعارة .

وعرفوا أيضا نظام الاستبضاع . .وهو أن يرسل أحدهم امرأته إلى رجل مشهور بالبطولة أو الشجاعة أو النبوغ لتنجب منه ولدا يكون فيه صفات الرجل الذى عاشرته . . وكانوا أيضا يجمعون بين الأختين . . وقد بلغ بهم الأمر أنه إذا طلق أحدهم زوجته أو مات عنها وأصبحت

أرملة أصبح من حق أكبر أبنائه أن يتزوجها (زواج المقت) . . أو يتركها لأحد أخوته للزواج منها بمهر جديد !

وقد عبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن الوضع المهين للمرأة فى الجاهلية بقوله :

﴿ والله انا كنا فى الجاهلية ، ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم ما قسم ﴾ .

وكان الميراث حسب تقاليد الجاهلية خاصا يورث للأبناء الكبار من الذكور ولا حظ للمرأة فى ذلك ، لأن المرأة ضعيفة والضعيف لا مكان له فى مجتمع تحكمه تقاليد شاخت وتهرأت . . شأنها فى ذلك شأن الطفل الذى لا نصيب له هو الآخر من الميراث .

. . كل هذا الظلم الذى ساد المجتمعات القديمة قبل الإسلام بمختلف حضاراتها وفلسفاتها . . كان نظاماً باليا لا يستقيم مع الفطرة السليمة . . ولا يستقيم مع العدل المطلق . . وكان لابد أن يشرق على البشرية فجر جديد . . لا تهدر فيه آدمية الإنسان من ذكر وأنثى . . لأن كلا الجنسين خلقا من أصل واحد . .من الطين . . فلا فضل لواحد على الآخر إلا بمقاييس أخرى . . غير مقياس الجنس . . وكان الفجر الجديد . . والنور الجديد . . الذى يضع الإنسان فى موضعه الصحيح . . وأن يكون لكل فرد دوره حسب تكوينه وقدرته بلا ضيم أو إجحاف . . وكان هذا الفجر الجديد متمثلا فى دعوة الإسلام . . الدين الخاتم الذى جاء به محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام . . مبلغا به رسالة ربه للناس كافة . . ولتكون شريعة الإسلام هى الشريعة الصالحة للبشر فى كل زمان ومكان . . إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وفيها أبواب كثيرة للاجتهاد حتى تصبح شريعة مرنة لا تتعارض مع الفطرة الإنسانية . . ولا تتعارض مع تطور الزمان . . وتظل حية

نابضة ما بقى الإنسان على الأرض .. وفى ظل هذه الشريعة وضعت المرأة فى مكانها الصحيح .. بلا ظلم أو إجحاف أو طغيان .. وحدد لها الإسلام ما عليها من حقوق وما لها من واجبات .. وعلى ضوء هذه الشريعة السمحة .. عرفت المرأة وضع خطاها ومستقبلها مع الأيام ..

مشرق النـــور

فى القرن السادس الميلادى .. وعلى فترة من الرسل ، ولد محمد إبن عبد الله عليه الصلاة والسلام . ليكون ميلاده إيذانا بميلاد فجر جديد ، وحياة جديدة للبشرية كلها . فكان ميلاده فى فجر يوم الإثنين الثانى عشر من ربيع الأول (٢٠ ابريل من عام ٥٧١ م)
وكان من العجيب أن يكون أول ما نزل من القرآن الكريم كلمة ﴿ اقرأ ﴾

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۞ ﴾

(سورة العلق)

﴿ اقرأ ﴾ .. ومحمد لا يقرأ ولا يكتب .

ومعنى هذا أن أول أهداف الرسالة هى العلم والمعرفة حتى يزول الجهل والجهالة التى رانت على العالم كله .. وتصبح أمية محمد معجزة له .. فلو كان يقرأ ويكتب لقالوا أنه قرأ ما كتب فى التوراة والانجيل .. الكتب السابقة على الإسلام وتأثر بها وادعى النبوة .. ولكنه لم يقرأ ولم يكتب ومع ذلك فقد جاء بالعلم والمعرفة ، وكانت رسالته الإيمان بالتوحيد الخالص الذى لا تشوبه شائبة .. فكيف تحدث عن الأولين وقصصهم وما فيها من عظة وعبرة .. وهو الذى لم يقرأ صفحة من كتاب ! كانت دعوته هى النور الذى إكتسح كل ظلمة وظلام .. وكان همه الأول الحرص على العلم ، فهو القائل فى أحاديثه الشريفة :

— « العلماء ورثة الأنبياء » .
— « لموت قبيلة أيسر من موت عالم » .

— « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء » .
— « من سلك طريقا يطلب فيه علما ، سلك به طريقا إلى الجنة » .
وهو الذى لم يقرأ صفحة من كتاب .. بعث معلما للإنسانية كلها .. فالمعجزة في رسالته أنه ـ وهو الأمى ـ أعطاه الله من العلم ما لم يعط انسان .. وأعطاه من المعرفة ما جعله قدوة لكل من يريد أن يعرف ما يحيط به من أسرار الحياة . فالرسول الأمى الذى أصبح معلما وهاديا للبشرية لكها ، كانت الأمية دليل معجزته ، وأن ما أتى به من تعاليم الإسلام إنما هو وحى من الله سبحانه وتعالى .. فأين له من كل ما جاء به من تشريعات وعقائد وأخلاقيات متكاملة إلا أن يكون من عند الله .

والله يحب أن يكون الإيمان به عن معرفة وعلم . فكل شىء من حولنا فى كتاب الكون يدل عليه .

هذا الفضاء الذى يحوى من المجرات والكواكب والنجوم ما لايحصى وهذا الاتساع الهائل فى الكون الذى لا يمكن تصوره بالخيال .

وهذا النظام العجيب فى الكون .. وقوانينه التى تنظم حركة الحياة للأحياء فيه .. والتى يقف العقل البشرى أمامه عاجزاً متحيراً لا يمكن أن يكون للصدفة مكان فيه .. انه من تدبير الخالق الأعظم الذى لا تدركه الأبصاروهو يدرك الأبصار .

فالتأمل فى كتاب الكون العظيم .. والتأمل فى ذات الإنسان نفسه .. فهو الآخر كون عجيب يمتلىء بالأسرار والألغاز .. فلا أحد يعرف كنه نفسه .. ولا أسرار ذاته .. الطب مهما تقدم مازال عاجزا .. متخاذلا أمام علاج الكثير من الأمراض .. والموت نهاية كل حى ولن يستطيع إيقافه مخلوق مهما تقدم الطب .

— ﴿ لكل أجل كتاب ﴾.

وأسرار النفس عجيبة حتى أن هناك عشرات من مدارس علم النفس كل مدرسة تفسر النوازع الإنسانية على قدر اجتهادها ولكن هناك مساحات كثيرة مظلمة داخل النفس لم يستطع تفسير ما يجرى فيها من أسرار إلى اليوم . .

كل هذه الأمور تدل على وحدانية الخالق الأعظم .

ومن الذى يمكنه أن يصور كل علامات الاستفهام التى يمكن أن تدور فى الذهن الإنسانى ، حتى يعرف ما حوله من أمور بهذا الإيجاز المعجز فى القرآن الكريم :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَٰحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

يروى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن النبى عليه الصلاة والسلام عندما سمع مسلما يقرأ قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾

(سورة الروم)

قال الرسول عليه الصلاة والسلام معلقا :

— « ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها » .

في ظل دين يحتفى بالعلم والمعرفة .. ويأتى بعقيدة التوحيد الخالص وفى ظله يتساوى الجميع فى الحقوق .. لا فرق بين رجل وامرأة ويعطى كل ذى حق حقه فى ظل قواعد عادلة .. وشريعة محكمة منزلة من الله سبحانه وتعالى .. لم يكن من الطبيعى .. أن تنتشر هذه الدعوة بهدوء .. وهى التى تسوى بين السادة والعبيد .

فلم يكن من الطبيعى أن ينتشر الإسلام بسهولة .. لأنه دين لايجد لإنسان ميزة على إنسان آخر .. مها اختلف لونه .. أو قوميته إلا بالتقوى .

الجاه لا يرفع انسانا درجة واحدة عند الله .

والسلطان لا يرفع انسانا عن إنسان آخر عند الله .

والمال لا قيمة له إلا إذا أدى صاحبه حق الله فيه . إنما الشىء الوحيد الذى يميز انسان عن آخر هو تقواه .. وخوفه من الله .. وعمله بما جاء به القرآن والسنة .

كان من الطبيعى أن يحارب الدين الجديد أصحاب المال وأصحاب النفوذ .

وكان لابد أن يحارب هذا الدين الجديد الذين يفتخرون بالأنساب والأحساب .

وكان لابد أن يحارب الدين الجديد الذين لم يألفوا الجديد ويعيشون فى ظل عقلية تقدس ما ترك الآباء والأجداد .

وكان لابد أن يحاربه أشراف مكة الذين يرون أن بنى هاشم سوف يعلو مركزهم الاجتماعى بدعوة محمد بن عبد الله . والتاريخ لا ينسى ذلك اليوم الذى وقف فيه خاتم النبيين وهو يريد أن يبلغ أهل مكة بالدين الجديد ، وما جاء به وحى السماء ..

وقف الرسول على جبل الصفا تحقيقا لقوله تعالى :

— « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » .
قال لأهل مكة :
— « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ !
قالوا : أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط
قال لهم عليه الصلاة والسلام :
— ﴿ فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾ .
فإذا بهؤلاء الذين أعلنوا له صراحة أنهم لم يعهدوا عليه كذبا قط ، يتلفتون حولهم بعيون ذاهلة .. وكأن زلزالا هائلا هز الأرض تحت أقدامهم .. وإذا بصوت أقرب الناس إليه - أبو لهب - يرتفع فى وجه ابن أخيه قائلا :
— ألهذا جمعتنا تبا لك !
وبدأ الصراع بين الحق والباطل .. بين الخير والشر .. بين الجمال والقبح .. ان الأمر لم يعد أمرا سهلا ولا هينا .. وأقرب الناس إليه يسخر منه ويتهجم عليه بألفاظ لا تليق أن توجه لهذا الإنسان الذى لم يعهدوا عليه كذبا قط .. ونسيت عقولهم السقيمة أن الذى لم يكذب على الناس يستحيل عليه أن يكذب على الله .
المهمة عسيرة :
ولكن الرسول الكريم قد أهله ربه لتحمل أعباء هذه الرسالة العظمى لقد تربى يتيما .. فعلمه اليتم الاعتماد على النفس والصبر على الشدائد .. حتى أنه قدروى عنه قوله :
— « ولدت والحزن رفيقى » .
وعلمته أيام الحياة قبل المبعث .. وهو الذى ذهب فى طفولته الى ديار بنى سعد أن يطيل التأمل والنظر فى الكون وملكوت الله .. وأن

يحاول أن يعرف ما يدور حوله فى كتاب الكون .. السماء بنجومها .. والأرض وما حوت من جبال ووديان وسهول .. علمه التأمل الطويل .. الحكمة والبلاغة وحسن الاستماع إلى الآخرين .. والقدرة على مخاطبة الناس .. وساعده تكوينه النفسى .. وحبه الشديد للناس .. وما انطوت عليه ذاته من شمائل عديدة .. الحب .. والرحمة .. والايثار .. والوفاء بالعهد .. أن تتكامل شخصيته حتى يكون جديراً بحمل أعباء الدين الخاتم .

حتى عندما جاءوا ليطلبوا منه المستحيل .. مضى يدعو لدين الله غير عابىء بجهل الجاهلين ، ولا عبث العابثين .. طلبوا منه كما يصور لنا القرآن الكريم ببيانه المعجز :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إنه تعسف عجيب .

ومع ذلك مضى رسول الله ﷺ لأداء الرسالة بصبر يفوق طاقة البشر عذبوا المستضعفين من المسلمين وتحملوا العذاب بصبر المؤمنين .

وهاجر بعضهم إلى الحبشة فرارا بدينهم .

وتحمل الرسول وأصحابه حصار مكة الظالم فى شعب من شعاب مكة .

ولكن دعوة الله لابد أن تنتصر مهما تكن أشواك الطريق.. . لقد بلغ الحقد بأهل مكة أن قرروا قتل الرسول نفسه ، وأن يختاروا من كل قبيلة رجلا حتى يضيع دمه بين القبائل ، ولا يستطيع بنو هاشم الأخذ بالثأر . .

ولكن الله بصير بما يفعل الظالمون .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة الانفال)

وأمر الله رسوله بالهجرة إلى يثرب .

وخرج الرسول وسط حصار المشركين فى ظلمة الليل ، وهو ينثر التراب على وجوه المحاصرين له وهو يردد قوله تعالى :

﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدا ، ومن خلفهم سدا ، فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾

وخرج النبى ﷺ وصاحبه الصديق إلى يثرب ، تاركا البلدة التى ولد فيها وأحبها من أعماق نفسه ، واتجه إلى أم القرى وهو فى طريق هجرته . . وقال وعيناه تمتلئان بالدموع :

— « والله انى لأخرج منك ، وإنى أعلم أنك أحب بلاد الله الى الله ، وأكرمها على الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت »

وهو فى الطريق إلى يثرب مر « بأم معبد » يطلب بعضا من اللبن ولم يكن أمامها إلا شاة ضعيفة ، فقد خرج زوجها بالقطيع ولم يترك سوى

هذه الشاة لهزالها ومرضها .. فاتجه الرسول ﷺ صوب الشاة وهو يمسح ضرعها بيده ويدعو الله أن يبارك فى الشاة .. وبارك الله .. فإذا هى تدر لبنا .. كفى الجميع ، وعندما جاء زوجها وجد فى انتظاره بقايا كثيرة من اللبن من الشاة العليلة وتعجب من هذا الأمر ، قصت عليه (أم معبد) هذه المعجزة ، ووصفت الرسول ﷺ بقولها التى تناقلته الأجيال :

— « رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، مشرق الوجه ، حسن الخلق ، وسيما قسيما » فى عينيه دعج ، أحور .. أكحل .. إذاصمت فعليه الوقار وإذا تكلم سما وعلاه البهاء ، وكأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ، كلامه فصل ، لا هزر ولا هزل ، أجهر الناس ، وأجملهم من بعيد ، وأحلاهم وأحسنهم من قريب ، وسط بين الطول والقصر ، له رفقاء يحنون به .. إذا قال استمعوا لقوله وإذا أمر تبادروا إلى أمره .. » .

وهذا الوصف الذى يكاد يكون صورة فوتوغرافية بالكلام لأعظم رسل الله .. احتفظ لنا به التاريخ ليقرب لنا صورة هذا النبى الأمى .. المعلم العظيم .

واستقبلت المدينة الرسول استقبالا حافلا .

وبدأت الدعوة تأخذ شكلا جديدا .. فقد فرض الجهاد .. وبدأ الصراع بين مكة والمسلمين يأخذ شكلا أكثر حسما .. وكان انتصار المسلمين فى (بدر) بداية النهاية لزوال هيمنة أهل الشرك .. ثم توالت المعارك بين المسلمين والمشركين ، وبين المسلمين واليهود ، حتى تم النصر على اليهود ، وتم للمسلمين دخول مكة ، وإزالة ما بها من أصنام .. ثم توالت الوفود من مختلف شبه الجزيرة العربية التى أتت مبايعة للرسول ، وانتشر الإسلام فى كل مكان ..

وشعر الفرس والروم .. وهما الدولتان العظميان فى هذا الزمن بخطر

الدين الذى وحد الجزيرة العربية ، وجعل لها قوة مهابة الجانب . . فلم تعد قبائل متنافرة متناحرة بل وحدها الإسلام . . وزاد من خوف الامبراطوريتين من هذا الدين الجديد ، الرسائل التى بعثها الرسول للملوك والحكام فى مختلف أنحاء العالم المعروف يطلب منهم الدخول فى الإسلام . . وكان هذا يعنى عالمية الإسلام ، وأنه جاء للعالم كله . . وبدأ أول احتكاك بين العرب وأوروبا عندما واجه المسلمون الروم فى (مؤتة) . . ثم خروج النبى ﷺ بنفسه لملاقاة الروم والانتقام لشهداء مؤتة فى « تبوك » ولكن الروم لم تجرؤ على المواجهة . . وصالحه صاحب (أيلة) على الجزية ، وكذلك فعل نفس الشىء بعض القبائل وأعطاهم الرسول الأمان .

لقد رسخت أقدام الإسلام ، ودخل الناس فيه أفواجا وحج بهم الرسول العظيم « حجة الوداع » . . انه أراد أن يعلمهم كيف يحجون . . وفى حجة الوداع خطب الرسول فى هذا الجمع الهائل من المسلمين وكان بهذه الخطبة يودع الناس ، فقد تمت الرسالة ، ومادامت الرسالة قد اكتملت فهذا دليل على قرب رحيل أعظم رسل الله إلى أكرم جوار .

وفى هذه الخطبة الخالدة أوصى بالنساء خيرا . .

وفيما يتعلق بضرورة العناية بالمرأة . . وبدورها فى الحياة . . وضرورة الحرص على اكرامها . . قال الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام :

« أيها الناس . . ان لنسائكم حقا عليكم ، ولكم عليهن حق ، ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم . . ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح . .

فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن ، وكسوتهن بالمعروف » .
« وإنما النساء عندكم عوان فى أيديكم ، ولا يملكن لأنفسهن شيئا .. أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله .. فاتقوا الله فى النساء واستوصلوا بهن خيرا .
ألا هل بلغت . اللهم اشهد » .
وفى نهاية خطبته الرائعة بعد أن وصى بالنساء خيرا .. أوصى بضرورة الأخوة بين المسلمين ، والعدل فى الميراث فقال :
— « أيها الناس إنما المؤمنون اخوة ، ولا يحل لا مرء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه .
« ألا هل بلغت اللهم فاشهد » .
فلا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما ان أخذتم به لن تضلوا بعده ، كتاب الله وسنة نبيه ..
ألا هل بلغت اللهم فاشهد .
أيها الناس ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند الله اتقاكم ، ليس لعربى فضل على أعجمى إلا بالتقوى .
ألا هل هل بلغت .. اللهم اشهد .. فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فرب مبلغ أوعى من شاهد .
أيها الناس : ان الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، ولا يجوز لوارث وصية ، ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث .
والولد للفراش ، وللعاهر الحجر .
ومن ادعى إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل منه صرف ولا عدل .. والسلام عليكم ورحمة الله » .

ويشرح الباحث الاستاذ أحمد التاجى الفقرة الأخيرة من هذا الخطاب بقوله :

— « لم يبلغ أى مجتمع حضارى ما بلغه الإسلام فى مقت العنصرية والدعوة إلى المساواة بين الناس ، فلا أبيض ، ولا أسود ولا عربى ولا أعجمى .

والسر العجيب فى أن النبى ﷺ يدعو من معه لأن يبلغ الغائب الذى لم يحضر دعوة المساواة ـ لتنقش فى قلوب الناس على مدى العصور ـ وليثبت سبق الإسلام لهذه الدعوة التى لم تصل بعد لأرقى الأمم حضارة وعلما » تلك الحضارة الدنيوية الفارغة من كل مضمون نافع ، والوصية ما يوصى به المرء بعد وفاته من مال يئول من بعده لشخص ما .

والولد للفرش : الولد الذى ينسب إلى أبيه ويرثه ما ولد على فراشه .. أى من زوجته الشرعية ، أما ولد السفاح فى غير فراشه فله الحجر ، أى لا يرث من ادعى إلى غير أبيه .. كان ذلك فى الجاهلية ـ والمتبنى ـ وكان يأخذ حكم الابن ، يرث ويورث ، وقد أبطل القرآن ذلك .

وقد نزل قوله تعالى بعد أن أتم الرسول عليه الصلاة والسلام خطبته :

— « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » .

وهكذا نرى أن الإسلام كان حفيا بالمرأة .. سعيدا بها وبدورها فى الحياة .. فلا أسرة بلا امرأة .. ولا حياة بلا امرأة .. والرسول الكريم فى خطبة الوداع يحرص على تذكير المسلمين بهذا الدور الهام للمرأة فى بناء المجتمعات .. ومقارنة بين ما أعطاه الإسلام لها من حقوق بالقوانين الوضعية يتضح الفرق الهائل بين تشريع الله ، وتشريع البشر !

المرأة .. فى عصر النبوة

لاشك أن عصر النبوة هو القدوة والمثال .
فكيف كانت حياة المرأة فى عهد الرسول ؟
وكيف كان دورها فى الحياة العامة والخاصة ؟
ان الذى يتأمل هذه الفترة الخصبة من التاريخ الإسلامى ، سوف يرى دور المرأة البارز فى الحياة العامة ، وسوف يرى نماذج رائعة من تضحيات المرأة فى سبيل العقيدة ، وفى سبيل الدفاع عنها حتى فى ميادين القتال . . فقد كانت تدفع زوجها للجهاد فى سبيل الله غير مبالية بما يحدث له . . فإذا مات فهى الشهادة ، وإذا عاش فقد أدى دوره كما يمليه عليه دينه ويرفع قامة الأسرة بين الناس .
نعم شاركت المرأة فى غزوات الرسول . . وخرجت معه فى كثير من المعارك الفاصلة . . لا مضمدة للجراح . . ولا مواسية . . ولا مشجعة فقط . . بل وأيضا مقاتلة .
وهناك نماذج كثيرة مشرقة فى هذا المجال . .
هناك مثلا سلمى بنت قحطان . . والدة أنس بن مالك خادم الرسول . . هذه السيدة العظيمة حاربت مع الرسول فى « أحد » وفى « حنين » . . وحضت المؤمنين على القتال ، والأسماء كثيرة . . ولم يقل لها أحد أنك تتنكرين للإسلام وعليك أن تقبعى فى بيتك . . بل كان الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه يشجعها على ذلك .
وصفية عمة الرسول عليه الصلاة والسلام ، اخترقت الصفوف « يوم أحد » وهى تبحث عن أخيها الحمزة الذى استشهد فى المعركة ومثل بجسده . .
وكان النبى قد رأى عقب المعركة ما فعله مشركو مكة من بشاعات وقد مثلوا بجسد عمه الشهيد فبكى وهو ينظر إلى جسد الشهيد العظيم المضرج فى دمائه وقال قولته الشهيرة :

— « ما وقفت موقفا أغيظ الىّ من هذا الموقف » . .
وتأمل ما حوله من الشهداء . . وأخذ يرثى عمه :
— « إنا لله وإنا إليه راجعون . . رحمك الله يا عمى ، فقد كنت وصولا للرحم ، فعولا للخيرات ، فو الله لئن نصرنى الله عليهم لأمثلن بسبعين رجلا منهم » .
ونزل وحى الله . . .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

(سورة النحل)

فى هذا الجو المفعم بالأحزان . . جاءت صفية عمة الرسول . . وخشى الرسول عليها من هذا المشهد الرهيب ، حتى أنه طلب من ابنها الزبير بن العوام أن يبعدها عن هذا المشهد حتى لا تزيد أحزانها . . ولكنها أصرت أن ترى أخاها ، واحترم النبى العظيم شجاعتها وتركها تذهب لترى أخاها . .

لقد رأت هذا الفارس الذى كان ملء السمع والبصر ، والذى طالما نصر رسول الله . .ووقف بجانبه فى مكة جهالة الجهال من أهلها ويذود عن ابن أخيه العظيم .

وطالما شاهدت ساحة القتال فى بدر وأحد قتاله العنيف ضد أعداء الإسلام . . وها هو الآن قد أصابه ما تقشعر منه الأبدان ، بعد أن لاكت هند امرية أبى سفيان كبده .

أمام هذا المشهد الحزين ، وقفت صفية لا لتلطم خديها ، أو تعفر وجهها فى التراب ، ولكن حبست الدمع فى مآقيها وهى تقول مخاطبة

الشهيد العظيم :

ان يوما أتى عليك ليوم
كدرت شمسه وكان مضيئا

وفى يوم أحد .. عندما هاجم المشركون الرسول بضراوة وهم يريدون قتله ، وأصحابه يدافعون عنه دفاعا مستميتا .. أدمى وجهه الشريف ، وأقبلت ابنته فاطمة لتضمد جراح والدها العظيم .. ولم يقل لها الرسول .. ولا زوجها الإمام على .. ولا أحد من المسلمين .. ماذا خرجت من بيتك إلى ميدان القتال !

ويروى الرواة كيف أن الرسول عليه الصلاة والسلام صلى ذات يوم وهو يحمل « أمامة بنت أبى العاص » ابنته من زينب بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام .. فكان هذا نوعا من تكريم الرسول لحفيدته .. ولم ير عليه الصلاة والسلام فى هذا إلا الرحمة .. ولم ير فى الأنثى شيئا كريها كما كان يعتقد الناس فى جاهليتهم .

والشيخ أحمد حسن الباقورى يروى فى كتابه (قطوف من أدب النبوة) رد أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ودفاعها عن الفهم الصحيح للإسلام عندما سمعت من يقول إن الصلاة يفسدها على المصلى الكلب والحمار والمرأة ..

لم تجد أم المؤمنين على حد تعبير الشيخ الباقورى بدا من أن ترد هذا القائل كاذبا ـ إلى الصدق أو تحمله ـ جاهلا ـ على العلم فقالت له فى أسلوب لاذع من التأنيب والتوبيخ :

— « أجعلتمونا نحن النساء ـ معادلين للكلاب والحمير ؟ ثم مضت تذكر ما يسوغ هذا التأنيب لذلك الجاهل أو الكاذب ، فذكرت أنها كانت تضطجع على السرير فيجىء رسول الله عليه الصلاة والسلام فيصلى والسرير بينه وبين القبلة ، فتكره أم المؤمنين أن تستقبله ، بيد

أنها منتصبة وهو يصلى ، فتنسل من لحافها مترفقة فى خفة من جهة رجلى السرير . . والذين يتصورون هذه الصورة على هذا النحو يرون رسول الله يصلى وعائشة بينه وبين القبلة . . وفى هذا دليل - وأى دليل - على أن المرأة لا تفسد الصلاة على المصلى ، كما ان فيه دليلا على أن قائل هذا القول - الذى صدرنا به هذا الحديث إما أنه يفترى على الله الكذب ، وإما أنه لا يعنى ما يقوله . . وهو فى كلتا الحالتين غليظ الحس ، مريض الذوق ، قليل الأدب بمواجهته أم المؤمنين أو النساء جميعا ممثلات فى أم المؤمنين فإنهن معادلات ومساويات للكلاب والحمير .

وقد زادت أم المؤمنين حديثاً آخر يؤكد المعنى الذى ذهبت إليه وهى تقول فيه : « كان النبى صلى الله عليه وسلم وأنا راقدة معترضة على فراشه . . فإذا أراد أن يصلى الوتر أيقظنى فأوترت معه » . .

وحول حمل رسول الله « أمامة » فى الصلاة يختلف أهل العلم اختلافا نرى من الخير أن نثبته فى هذا المقام كما رواه شيخ الإسلام الشرقاوى . . حيث قال رحمه الله : « وإنما فعل ذلك رسول الله لبيان الجواز . . وهذا مذهبنا نحن الشافعية ومذهب أبى حنيفة ومذهب أحمد . . وقد ادعى المالكية نسخ الحديث بتحريم العمل فى الصلاة . . وهذا قول مردود كما أن حمل « مالك » على الصلاة النافلة مرفوع بحديث مسلم الذى يقول فيه راوية : رأيت النبى يؤم الناس ، « وأمامه » على عاتقه . . وكذلك حديث أبى داود ، بينما نحن ننظر رسول الله فى الظهر والعصر وقد دعاه بلال للصلاة . . إذ خرج الينا وأمامه) بنت ابنته على عنقه فقام فى الصلاة وقمنا خلفه » .

وفى كتاب النسب لابن بكار : ان ذلك كان فى صلاة الصبح ، وهذا يقتضى أنه كان فى صلاة الفرض .

وجملة القول ما ذكره الإمام النووى من قوله : لقد ادعى بعض المالكية أن هذا الحديث منسوخ .. وادعى بعضهم انه من الخصائص ، وادعى بعضهم أن ذلك كان لضرورة ، وكل ذلك دعاوى باطلة مردودة لا دليل عليها .. وليس فى الحديث ما يخالف قواعد الشرع ، لأن الآدمى طاهروما فى جوفه معفو عنه ، وثياب الأطفال وأجسادهم محمولة على الطهارة حتى تتبين النجاسة ، ولم يكن فعله صلوات الله عليه خاليا من الحكمة فإنه حمل (أمامة) فى صلاته ليدفع به ما كانت العرب تألفه من كراهية للبنات وحملهن .. فخالفهم فى ذلك حتى فى الصلاة للمبالغة فى ردعهم ، والبيان بالفعل أقوى من البيان بالقول » .

● ● ●

المرأة فى نظر الإسلام لها دورها الإيجابى فى الحياة .. ولها دورها الفعال فى المجتمع .. وهذا ما رسمه لها الإسلام ، فلها حق التعليم حتى ترتفع بالعلم إلى مكانة مرموقة .. ولها حرية التصرف فى مالها ولها حق اختيار زوجها . فلا يفرض عليها رجل لا تريده ولا ترتضاه .. ولها حق التوريث .. ولها دور كزوجة وأم .. وعليها بجانب ذلك ما تقتضيه الأمور من واجبات .. فلا حقوق بلا واجبات .

جاء فى صحيح البخارى :

«كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى الفجر ، فيشهد الصلاة معه نساء من المؤمنات متلفعات فى ثيابهن ، ثم يرجعن إلى بيوتهن ما يعرفهن أحد » .

ولقد طلبت النساء من رسول الله أن يخصص لهن مجلسا خاصا يسألنه فيه عما يعن لهن من أسئلة حتى يتفقهن فى أمور دينهن وأجابهن إلى ذلك .

فقلن لرسول الله : يا رسول الله ، قد غلبنا الرجال فاجعل لنا مجلسا لنلقاك فيه .

وحقق لهن الرسول هذه الرغبة .. وكان يجيب على أسئلتهن ويعظهن ، وكانت أمهات المؤمنين يحضرن هذه المجالس . وكانت عائشة رضى الله عنها أحفظ النساء بأحاديث الرسول وأكثرهن علما بالسنة .

وهناك رواية تروى عن حوار بين عائشة والرسول يدل على ذكائها وأن فيها ما فى النساء من غيرة .. والرواية تقول على لسان عائشة أم المؤمنين :

دخل النبى علية الصلاة والسلام علىّ يوما فقلت له :

— أين كنت ؟

قال : كنت عند أم سلمة .

قلت : ما تشبع من أم سلمة .

فتبسم رسول الله لغيرتى منها .. ثم قلت :

— يا رسول الله ألا تخبرنى عنك .. لو أنك نزلت بعدوتين أحداهما لم ترع ، والأخرى قد رعيت ، أيهما كنت ترعى ؟

قال : التى لم ترع .

قلت : فأنا لست كإحدى نسائك .. كل امرأة من نسائك كانت عند رجل غيرك .

فتبسم الرسول عليه الصلاة والسلام لقولها.

وقد صححت عائشة رضى الله بعض ما روى عن الرسول ولم يكن قد فهم فهما سليما .. من ذلك ما روى عن أبى هريرة .. فقد قال : أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : الشئوم فى ثلاثة .. فى الدار ، والمرأة والفرس .

فصححت الحديث فقالت :

— لم يحفظ أبو هريرة ، فقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : قاتل الله اليهود فإنهم يقولون : الشؤم فى ثلاثة .. فى الدار والمرأة والفرس .

فسمع أبو هريرة آخر الحديث ولم يسمع أوله ..

وهكذا روت عائشة وأمهات المؤمنين العديد من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، وشرحن العديد من هذه الأحاديث .

وهذا يعنى أن المرأة لها دورها ولها مكانتها ، وأن تعليم المرأة أمر واجب حتى تقوم بدور هام فى بناء الحياة فى المجتمع الإسلامى ، ولا تصبح عالة على الرجل بجهلها وعدم فهمها أمور دينها ودنياها ..

ولم تقتصر روايات الأحاديث النبوية الشريفة عند السيدة عائشة فقد رويت أحاديث كثيرة على لسان أمهات المؤمنين : حفصة ، وأم سلمة ، وصفية وزينب ، وهل هناك حفاوة بالمرأة كتلك الحفاوة التى كان يقابل بها رسول الله ابنته فاطمة .. انه يكرم المرأة فى شخصية ابنته .. حتى أن عائشة قالت :

— ما رأيت أحداً من خلق الله أشبه حديثا وكلاما برسول الله من فاطمة ، وكانت إذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ورحب بها وأجلسها فى مجلسه . وكان إذا دخل عليها قامت إليه ، ورحبت به وأخذت بيده فقبلته » .

أى تكريم من رسول الله لابنته .. وأى حب لرسول الله من ابنته .. انها دروس يجب أن تعيها المرأة المسلمة فى احترام الأب للإبنة ، ومبادلة الابنة هذا الاحترام للأب والأم .

وأى بناء سليم للأسرة عندما تتماسك بكل هذه الرحمة والفهم والحنان لصلة الرحم .

وهناك من النساء من غير بيت النبوة ما روين الأحاديث عن رسول الله ، فها هى ذى خولة الأنصارية تروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله :

— « ان رجالا يتخوصون فى مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة » .

والحديث يحض على أن يأتى المال من حلال . فللمرأة مكانة ومنزلة كرمها بها الإسلام ، وخير دليل على ذلك ما رويناه عن تكريم الرسول للمرأة ، واستماعه اليهن ، وتعليمهن أمور دينهن .

كما أن القرآن الكريم هو دستور الإسلام يضع المرأة فى مكانها الصحيح .. وقد عرض القرآن للمرأة فى عشر سور أو أكثر على حد قول الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق منها : سورة البقرة ، وسورة النساء الكبرى . وسورة المائدة ، وسورة النور ، وسورة الأحزاب ، وسورة المجادلة ، وسورة الممتحنة ، وسورة التحريم ، وسورة النساء الصغرى (المشهورة بسورة الطلاق) .

وقد تحدث الإمام الشيخ شلتوت عن القرآن ومنزلة المرأة فقال : تحدث القرآن عن الأصل الذى تكاثر منه الإنسان وجعل المرأة شريكة الرجل فى تكوين ذلك الأصل ، وجعله نعمة توجب على الإنسان التقوى والمراقبة .

أنظر قوله تعالى فى سورة النساء :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ① ﴾

(سورة النساء)

جعل للمرأة حقا فى المبايعة على السمع والطاعة والقيام بحدود الشريعة وأحكامها .. أنظر قوله تعالى فى سورة الممتحنة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الممتحنة)

ومن لطيف ما يروى فى شأن مبايعة النبى ﷺ النساء ذلك الحديث الذى جرى بينه وبين هند بنت عتبة ، زوجة أبى سفيان وقت المبايعة :

قال عليه الصلاة والسلام :

— « أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئا ! » .

فقالت هند : وكيف نطمع أن يقبل منا ما لم يقبله فى الرجال ؟

فقال عليه الصلاة والسلام : ولا تسرقن .

فقالت هند : ان أبا سفيان رجل شحيح .. انى أصبت من ماله هناة ، فما أدرى أتحل لى أم لا ؟

فقال أبو سفيان ـ وكان حاضرا ـ :

— ما أصبت من شىء ـ فيما مضى ـ فهو لك حلال .

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وعرفها ـ فقال لها :

— « وانك لهند بنت عتبة » .

قالت : نعم .. فاعف عما سلف ـ يا نبى الله ـ عفا الله عنك .

فقال عليه الصلاة والسلام : ولا تزنين .

فقالت : أو تزنى الحرة ؟ !

فقال : ولا تقتلن أولادكن .

فقالت : ربيناهم صغارا ، وقتلتهم كباراً فأنت وهم أعلم !

(تشير إلى مقتل ابنها حنظلة وكان قد قتل فى بدر) فضحك عمر ـ وكان حاضراً ـ حتى استلقى على ظهره . وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

ـــ « ولا تأتين ببهتان » .

فقالت : ان البهتان لأمر قبيح ! وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق . .

فقال : « ولا تعصيننى فى معروف » .

فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا ، وفى أنفسنا أن نعصيك فى شىء » .

ويعلق الشيخ محمود شلتوت على هذا الحوار بين الرسول الكريم وهند بنت عتبة بقوله :

وقد تلمح فى هذا الحديث ـ كما ألمح فيه كلما قرأته ـ دلائل (الزعامة النسائية) مرسومة على وجه هند بنت عتبة .

وإذا علمت أن التى روت هذا الحديث أميمة بنت رقية ، لا يبعد أن تلمح على وجهها هى الأخرى دلائل (سكرتيرة الحركة النسائية) .

فما أشبه الليلة بالبارحة .

وانظر إلى هذه الظاهرة العظيمة . . ظاهرة حرية المرأة فى نقاشها وحوارها للنبى : حرية لا يحلم بها الرجال عند أعظم ملوك الأرض ديمقراطية .

ولعلك تأخذ من مبايعة النبى ﷺ للنساء ـ مبايعة مستقلة عن الرجل ـ ان الإسلام يعتبرهن مسئولات عن أنفسهن مسئولية خاصة مستقلة عن مسئولية الرجل .

ويضيف الشيخ شلتوت :

— ولا تعوزك الآيات الصريحة التى تقرر للمرأة ذلك المبدأ العظيم ـ اقرأ ان شئت ـ قوله تعالى فى سورة « التحريم » :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة التحريم)

وقوله تعالى :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة التحريم)

فالمرأة فى القرآن لا يؤثر عليها ـ وهى صالحة ـ فساد الرجل وطغيانه .

ولا ينفعها وهى ـ طالحة ـ صلاح الرجل وتقواه ، فإنها ذات مسئولية مستقلة فيما يتعلق بشئونها أمام الله .

ولقد كان من لوازم استقلالها فى المسئولية أن تكون كالرجل فى درجات المثوبة على فعل الخير ، ودرجات العقوبة على فعل الشر .

اقرأ قوله تعالى :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ

ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

(سورة النساء)

واقرأ قوله تعالى :

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾

(١٩٥ آل عمران)

وقد قال المفسرون : أن هذه الآية نزلت حينما قالت أم سلمة رضى الله عنها لرسول الله ﷺ : « إنى أسمع الله يذكر الرجال فى الهجرة ولا يذكر النساء » . ويقول الأمام الأكبر الشيخ شلتوت تعليقا على ذلك :

— إذا صح هذا وكان نزول الآية بناء على سؤال الزعيمة (أم سلمة) فإنه يدل على أن المرأة تشعر من قديم بأن لها حقا كالرجل ، وعلى أنها لم تزل - منذ القدم - تعمل على ظهور ذلك الحق ، والحصول عليه ، وأنها لا تحب أن تنفض حياتها ، وهى فى ظل الرجل - من قديم أيضا - كشريك لها فى الحياة - يحاول لو ترك وطبعه - أن يتغلب عليها وأن يمحو ذكرها من شئون الحياة ! »

وهل هناك استنارة كهذه الاستنارة التى ترى المرأة من خلالها مفهوم الإسلام الصحيح .

وهل هناك من الدساتير الوضعية فى العالم فى عصورنا الحديثة ما ينظر إلى المرأة بهذه الرؤية التى يكبر فيها أنوثتها ووضعها الاجتماعى ويكفل لها حرية التعبير بجانب الحقوق التى كفلها لها الإسلام . .

ان المرأة فى أوروبا ما تزال مهضومة الحق فى كثير من الأمور . . فهى بمجرد أن تنتقل إلى بيت الزوجية تصبح مدام فلان . . وكأنما شخصيتها قد ذابت فى شخصية زوجها . . وحريتها المزعومة . . بلاد حدود . . ولا وازع من قيم أو دين جعلها فى مهب الريح . . وفى الشعوب التى تبيح الحرية للمرأة بلا حدود باسم الحرية الشخصية نرى فيها أكثر نسب من الانتحار . . وهذا يعنى أن الحرية والأباحية المزعومة بلا قيود ولا سياج من أخلاق فى الواقع لا تؤدى إلى سعادة . . وإنما هى نوع من التخدير الوقتى سرعان ما يتلاشى أمام وهج الواقع وينتهى بالانتحار !

وقد نشرت الصحف الانجليزية كيف اغتصبت امرأة انجليزية فى « أتوبيس عام » . . ولم ينقذها أحد . . رغم صراخها وعويلها وانشغل الركاب أما بالتطلع فى النوافذ ، أو قراءة الصحف ، أو النزول من الأتوبيس . . ولم يجرؤ أحد أن يتدخل أمام هذه الجريمة البشعة . . وكان السبب هو اللا مبالاة التى ابتلى بها الغرب فى القرن العشرين !!

. . هذه هى شريعة الإسلام التى تعطى المرأة حقها فى العمل والحياة ، وتكفل لها كل ما يسعدها على صيانة عرضها وشرفها ومالها . . ولو اتبعنا هذا الشريعة لتحقق التكامل فى مجتمعنا الإسلامى بين الجنسين دون أن يحدث لنا الفواجع التى نراها فى المجتمع الأوروبى ، وللأسف فإن البعض يرى فى الجرى وراء « موضات » الغرب ، وتدهوره الأخلاقى مادة للتقليد ، وليته قلده فى تقدمه التكنولوجى والعلمى !

فالمرأة فى الإسلام متساوية مثل الرجل أمام الله ، وأمام المجتمع .

— ﴿ للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾ .

والإسلام لا يفرق بين الرجال والنساء إلا فيما تقتضيه الفطرة كما

يقول الدكتور عبد الحليم محمود ـ وتطلبه الطبيعة لكل منهما كإسقاط الصلاة عن الحائض ، وعدم الزام النساء بحضور صلاة الجمعة تاركا لها الاختيار فى الذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة أو المكث فى البيت وصلاة الظهر .

* * *

ولاستمرار الحياة .. وحتى يحيا المجتمع حياة سليمة فإن الإسلام لا يقف ضد نداء الطبيعة ، ولا يحول دون الإنسان وتحقيق غرائزه الذى خلق بها ، وحتى لا تصبح الحياة فوضى .. والمجتمع يعج بالرذائل فقد نظم الإسلام الحياة على أساس سليم .. ولا حياة بلا رجل ولا امرأة .. وبالتالى فإن الزواج كما رسم حدوده الإسلام هو المعادلة التى تتحقق من خلالها سعادة الإنسان من ذكر وأنثى .. وبه تستمر الحياة فى إيقاع سليم .

كرامة المرأة المسلمة

الإسلام هو دين الفطرة السليمة .. والفطرة السليمة هى التى تستجيب لنداء الدوافع التى خلق الإنسان بها .. ونداء الفطرة يعنى أهمية وجود علاقة بين الرجل والمرأة .. وهذه العلاقة هى اللبنة الأساسية فى بناء الأسرة .. ومن مجموع الأسر يتكون المجتمع .. فإذا كانت خلايا هذا المجتمع سليمة (الأسرة) تقدم المجتمع وواصل مسيرته إلى المكانة التى يريدها فى التقدم والحضارة .. وإذا كانت هذه « الخلايا » سقيمة أصبحت كالخلايا السرطانية التى تهدد المجتمع كله بالفناء .. ومن هنا كانت عناية الإسلام بالزواج .. فرسم له أسسه وقواعده وقوانينه حتى ينجح ويستمر .. وتستمر به الحياة الأسرية السليمة .

فالزواج فى الإسلام عهد وميثاق . بل أن الإسلام يسميه ميثاقا غليظا .. فنرى القرآن الكريم وهو يحذر الرجل من أخذ ما دفعه للمرأة :

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

(١٢٨ النساء)

الزواج فى الإسلام شىء مقدس .. المرأة فيه ليست متاعا للرجل .. وليست رقا يفعل بها ما يريد .. ولكن العلاقة تكاملية يكمل كل منهما الرجل والمرأة الآخر ..

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الروم)

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾.

فالزواج هو ارتقاء بغرائز الإنسان والإعلاء بها ، ولهذا يقول الرسول الكريم :

— « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

وقد أعجبنى ما كتبه الأمام أبو حامد الغزالى فى كتابه (احياء علوم الدين) وهو يتحدث عن الزواج . . فهو يتحدث عن الترغيب فيه وعن الترهيب عنه . . ويورد أحاديث الرسول نختار منها :

* « النكاح سنتى فمن رغب عن سنتى فقد رغب عنى » . .

* « النكاح سنتى فمن أحب فطرتى فليستن بسنتى » . .

* « إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه . إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير .

* « من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله فى الشطر الثانى »

ويعرض الإمام الغزالى الترهيب عن النكاح فيروى بعض أحاديث الرسول ومنها هذا الحديث :

— « يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده ، يعيرونه بالفقر ويكلفونه مالا يطيق فيدخل المداخل التى يذهب فيها دينه فيهلك » .

ويروى الإمام الغزالى أنه عندما سئل أبو سليمان الداراني عن النكاح فقال : الصبر عنهن خير من الصبر عليهن ، والصبر عليهن خير من الصبر على النار !

ويرى الإمام الغزالى أن فوائد الزواج : الولد . . وكسر الشهوة وتدبير

المنزل ، وكثرة العشيرة ومجاهدة النفس بالقيام بهن .

ويقول الإمام الغزالى عن الزواج :

— فيه إراحة للقلب وتقوية له على العبادة ، وفى الاستئناس بالنساء من الراحة ما يزيل الكرب ويروح عن القلب .

و . . ما أكثر الأحاديث عن المرأة ودورها فى بناء الحياة من خلال الزواج . . من هذه الأحاديث :

* « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة » .

وقوله : « تنكح المرأة لجمالها ومالها وخلقها ودينها فعليك بذات الدين والخلق تربت يداك » .

وقوله : لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ولكن تزوجوهن على الدين .

وقد أعجبنى دراسة كتبها الدكتور محمد عثمان نجاتى (الحديث النبوى وعلم النفس) . . حيث يربط بين ما جاءت به الأحاديث النبوية الشريفة وتوافق أحدث النظريات النفسية معها . . فيقول : ان الزواج هو الطريقة المثلى للسيطرة على الدافع الجنسى ، فهو يؤدى إلى اشباعه بالطريق الحلال المشروع ، فيساعد بذلك على غض البصر ، وعلى التعفف عن اشباعه بالطريق الحرام . . فعن أبى ذر قال :

دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل يقال له عكاف بن بشر التميمى فقال له النبى صلى الله عليه وسلم :

يا عكاف هل لك من زوجة ؟ قال لا ، قال ولا جارية ؟

قال : ولا جارية .

قال : وأنت موسر بخير ؟

قال : وأنا موسر بخير .

فقال : أنت إذن من إخوان الشياطين . . لو كنت فى النصارى كنت من رهبانهم . ان سنتنا النكاح . . شراركم عزابكم . . وأرازل موتاكم عزابكم . أبيشيطان تمرسون . . ما للشيطان سلاح أبلغ فى الصالحين من النساء إلا المتزوجون . أولئك المطهرون المبرؤون من الخنا . . ويحك يا عكاف انهن صواحب أيوب وداود ويوسف وكرسف » .

فقال له بشر بن عطية : ومن كرسف يا رسول الله ؟

قال : رجل كان يعبد الله بساحل من سواحل البحر ثلاثمائة عام يصوم النهار ويقوم الليل ، ثم أنه كفر بالله العظيم فى سبب امرأة . . عشقها وترك ما كان عليه من عبادة الله عز وجل ، ثم استدرك الله ما كان منه فتاب عليه . . ويحك يا عكاف تزوج وإلا فأنت من المذبذبين » . .

وحث الرسول ﷺ الآباء على تزويج بناتهم إذا ما تقدم لهن شباب على دين وخلق ، وحذر من الامتناع عن تزويجهن ممن يتقدم لهن من الشباب الذين يرضون دينهم وخلقهم ، فإن ذلك يؤدى إلى انتشار الفساد فى المجتمع . . فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن الرسول ﷺ قال :

— « إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » .

وكان الرسول ﷺ يدعو إلى تيسير الزواج ، وكان من سنته تبسيط المهور ، وعدم المغالاة فيها تشجيعا للشباب على الزواج . فعن سهل بن سعد أن النبى ﷺ جاءته امرأة فقالت : جئت لأهب لك نفسى . فنظر إليها رسول الله ﷺ فصعد النظر اليها وصوبه ، ثم طأطأ رأسه فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئا جلست ، فقام رجل من أصحابه فقال : يا رسول الله ان لم تكن لك بها حاجة فزوجنيها . . فقال صلى الله عليه وسلم :

— « هل عندك من شيء ؟ .
قال : لا والله يا رسول الله .
قال : اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئا ؟
فذهب ثم رجع فقال :
— لا والله يا رسول الله ما وجدت شيئا .
قال : أنظر ولو خاتما من حديد .. ولكن هذا ازارى فلها نصفه .
فقال رسول الله ﷺ : ما تصنع بازارك ، ان لبسته لم يكن عليها من شيء ، وان لبسته لم يكن عليك من شيء » .
فجلس الرجل حتى طال مجلسه ، ثم قام فرآه رسول الله ﷺ موليا فأمر به فدعي ، فلما جاء قال : ما معك من القرآن ؟
قال : معى سورة كذا وسورة كذا وعدها .
قال : أتقرؤهن عن ظهر قلب ؟ قال : نعم
قال : اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن ..
وفى رواية : زوجتكها بما معك من القرآن ..
ويحلل عالمنا النفسى العلاقة بين الرجل والمرأة من خلال الحديث النبوى وعلم النفس قائلا :
ومما يساعد على السيطرة على الدافع الجنسى عدم تعرض الشباب لرؤية ما يثير فيهم الدافع الجنسى من مفاتن جسم المرأة ، ولهذا أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين والمسلمات فى سورة النور بغض النظر ، كما أمر الله تعالى النساء بعدم إظهار زينتهن ، وبإسدال خمرهن على جيوبهن ، قال تعالى :
﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ

أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

(سورة النور)

وكذلك دعا الرسول ﷺ إلى حجاب المرأة واخفاء زينتها . ونهى أن تلبس المرأة ملابس تحكى تفاصيل بدنها حتى لا يتعرض الشباب إلى ما يثير دوافعهم الجنسية . فعن عايشة رضى الله عنها أن الرسول ﷺ قال لأختها أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها حينما دخلت عليه وهى تلبس ثيابا رقاقا :

— «يا أسماء ان المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى فيها إلا هذا وهذا» وأشار إلى وجهه وكفه .

وترد أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ التى تدعو المرأة إلى عدم التزين إلا لزوجها ، وألا تخلو برجل حتى لا يكون الشيطان ثالثهما .. وعن غض البصر .

ثم يقول : ويجب أن تراعى الأسرة فى تربيتها لأطفالها أن تجنبهم كل ما يمكن أن ينبه واقعهم الجنسى فى سن مبكرة ، فقد بينت دراسات التحليل النفسى أن الدافع الجنسى ، وان كان يظهر بوضوح فى فترة البلوغ حينما يتم النضج الجنسى إلا أن هذا النضج لا يحدث فجأة ، وإنما يمر بمراحل نمو تمهد لظهوره فى تمام نضجه فى فترة البلوغ ،

فإذا تعرض الطفل لمثيرات شديدة وخبرات مهيجة لدافعه الجنسى ، فإن ذلك يساعد على تنشيط دافعه الجنسى فى وقت مبكر مما يؤثر تأثيرا ضارا على سير نموه الجنسى الطبيعى فيما بعد ، فتظهر بعض الميول الشاذة والانحرافات . ولذلك يجب الحذر من تعرض الأطفال الصغار لما يثير فيهم الدافع الجنسى . وقد حذر القرآن الكريم من الخطر الذى يمكن أن ينشأ عن ذلك قبل أن يكتشف « سيجموند فرويد » مؤسس مدرسة التحليل النفسى بأربعة عشر قرنا خطورة هذا الأمر على سير النمو الجنسى للأطفال . ولذلك وجه القرآن الكريم المسلمين إلى تعليم الأطفال الاستئذان فى الدخول على والديهم حتى لا يتعرضوا لرؤية عوراتهم ، وحتى لا يرونهم فى أوضاع لا ينبغى أن يروها ، قال الله عز وجل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة النور)

ففى هذه الآية حذر القرآن الكريم من دخول الخدم والأطفال على الرجال والنساء فى هذه الأوقات الثلاثة التى ذكرت فى الآية حيث يكونون فيها عادة متحررين من ملابسهم الذين يقابلون بها الناس ، وذلك حتى لا يطلع الخدم والأطفال على عوراتهم ، وحتى لا يرونهم

فى أوضاع قد تثير فيهم الدافع الجنسى . وقد أدرك الرسول ﷺ كذلك قبل المحللين النفسيين وعلماء النفس فى العصر الحديث الخطر الذى يمكن أن يتعرض له الأطفال إذا ما تعرضوا لخبرات معينة تثير فيهم الدافع الجنسى فى سن مبكرة ولذلك دعا الرسول ﷺ إلى التفريق بين الأطفال الذكور والإناث فى المضاجع فى سن مبكرة ، فعن عمرو بن شعيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

— « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » .

* * *

و . . نمضى مع تعاليم الإسلام السمحة وهى تضع أسس بناء الأسرة . . والزواج السعيد . . فالزواج تسبقه الخطبة . والزواج لابد من اشهاره بحضور شاهدين من الرجال أو رجل وامرأتين ، ويشترط فى الشاهدين الحرية والبلوغ والعقل ، وألا تكون المرأة من المحرمات عليه شرعا كما قرر ذلك الفقهاء .

كما حدد الإسلام أداب العشرة بين الأزواج . . فعلى الرجل أن يعاشر زوجته بالمعروف ، ولا يقسو عليها . . بل يلاطفها ويكسب ودها ، لقول الرسول ﷺ :

— « ان من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله » .

كما أن الإسلام يحض المرأة أيضا على احترام زوجها ، والعناية به ، والسهر على راحته ، وتوفير كل ما يدفعه إلى النجاح فى أمور دينه ودنياه . .

فقد سألت السيدة عائشة رضى الله عنها الرسول ﷺ - أى الناس أعظم حقا على المرأة ؟

قال : زوجها .

قالت : أى الناس أعظم حقا على الرجل ؟
قال : أمه .

والحياة الأسرية لها أسرارها ، ولا ينبغى أن تفشى هذه الأسرار لقول عليه الصلاة والسلام :

— « ان من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة .. الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ، ثم ينشر أحدهما سرهما . » .

كما عظم الإسلام حقوق الزوجة على زوجها فى العدل ، والمهر والنفقة وحقوق الزوج على زوجته فى الرعاية والانفاق ، ورعايتها ورعاية الأطفال وثبوت النسب إليه .. كل ذلك فى إطار من العدل المطلق الذى حددته الشريعة ..

المرأة فى القرآن

المرأة فى الإسلام ليست هى المخلوق التافه الذى خلق لمتعة الرجل كما كان ينظر إليها فى الجاهلية .. ولكنها إنسان سوى مثلها مثل الرجل .. وخلقت من نفس الطينة الذى خلق منها الرجل .. ولها دورها فى الحياة .. وهى عمود الأسرة الفقرى .. وهى التى تسبب السعادة أو الشقاء للأسرة كلها .. ومن هنا فقد رسم الإسلام لها الحدود التى يجب أن تسير بمقتضاها .. والدائرة التى يجب ألا تتخطاها .. كما رسم للرجل طريقة التعامل معها بلا ظلم وبلا جبروت .. ولا تجبر بعضلاته .. فالأمور مرسومة بنهج الله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا
بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ
فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ
أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ
شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ
إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة النساء)

فى هذه الآيات الكريمة يوضح القرآن الكريم الدستور الذى يجب أن يعامل به المسلم المرأة .

ويفسر لنا الدكتور محمد عبد المنعم القيعى هذه الآيات بعد أن يشرح المفردات فيقول فى معناها الإجمالى :

— ان الله عز شأنه ينادى عباده الذين أقبلوا على الله مؤمنين به ،

ممتثلين لأمره ، موجها لهم ومرشداً وموضحا ، أن أهل الجاهلية كانوا مخطئين فى اعتبار المرأة سلعة تعد جزءا من التركة ، يتصرفون فيها كما يتصرف الوارث فيما ورث . .

فالمرأة لها حقوق وعليها واجبات ، قال تعالى :

— ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ﴾

و « الدرجة » هى قوامة الرجل عليها ، يرعى شئونها وينفق عليها . .

ولا يحل فى أى حال من الأحوال أن تعد المرأة سلعة تورث ، ولو رضيت لنفسها بذلك ، إذ الميراث فى الأموال ، وهى ممن تتملك الأموال إما بالميراث أو بالعمل والتكسب ، كما قال :

— ﴿ للرجال نصيب بما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾ .

ثم ان المرأة مادامت رشيدة أن تختار شريك حياتها بنفسها ، وبشرط أن تختار كفؤا لها ، لا يجر اختيارها على عائلتها إهانة ، وقد كان الأزواج يحبسون بعض زوجاتهم ، ليحملوهن على دفع جزء من المهور ، أو على دفع المهر كله ، فنهى الله عن ذلك مقرراً أن المهر حقهن خالصا ، ليس لأب أو أخ أو قريب حق فيه . :

— ﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شى منه نفسا ، فكلوه هنيئا مريئا ﴾ . .

وقوله : ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾

استثناء من المنع ، كأنه يقول : لا يحل لكم أخذ شيء منهن فى وقت من الأوقات أو لعلة من العلل إلا فى حال النشوز من قبلهن ، نشوزا لا يمكن معه اصلاح . ففى تلك الحالة يجوز للزوج أن يطالب المرأة بالخلع وهو المال الذى تعوض به الزوجة زوجها أن أرادت فراقه ، كما قال سبحانه :

— ﴿ فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما أفتدت به ﴾ .

وهذا رد على الذين يقولون : ان الإسلام جعل حق المفارقة للرجل ، والحق أن حق الفراق ممنوح لكل من الرجل بالطلاق ومن المرأة بالخلع السابق ذكره . .

ثم قال سبحانه :

— « وعاشروهن بالمعروف » . .

و« العشرة بالمعروف » : أن يعاملها كما أمره الله ، فيقومها برفق ، كما قال سبحانه :

﴿ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾

(سورة النساء)

فبعض النساء تكفيهن الإشارة ، وبعضهن يكفيهن الهجر ـ للقضاء على كبريائهن ، وبعضهن لا يصلحهن إلا الضرب ، فإن ثارت ثائرة عصبيات هذا العصر من أجل ذلك ، قلنا لهن : ليست كل امرأة يصلح معها الضرب فاللاتى يقمن بواجبهن ـ فضليات يوصى بهن الإسلام خيرا ، فلا يسمح حتى بالتأفف لهن ، ثم قال سبحانه يخاطب الرجل :

— « فإن كرهتموهن » . .

أى : أن غضبتم عليهن فيجب التروى ، فإن أغضبتكم النساء لحظة فعسى أن يوجد الرضا منهن لحظات ، منهن السكن ، ومنهن المودة والرحمة . . وانتظروا « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » .

ان الغضب قد يفقد الإنسان الحكمة ، ويحمله على التصرف من غير روية ، فيحرم من خير كثير ، وخيركم خيركم لأهله :

— « واستوصوا بالنساء خيرا ، فانهن خلقن من ضلع أعوج ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وان تركته لم يزل أعوج : فاستوصوا بالنساء خيرا »

ثم قال سبحانه :

﴿ وان أردتم استبدال زوج مكان زوج ﴾ ..

الخطاب لجميع الأزواج فى جميع الزوجات .. أى إن أراد واحد منكم أن يطلق زوجته ليتزوج بأخرى ، والطلاق ابغض الحلال إلى الله . كما تقرر فى الإسلام :

— « وأيما امرأة سألت طلاق أختها أو طلاق نفسها من غير بأس ، فحرام عليها رائحة الجنة » .

فإن وقع الفراق لا مرأة وقد أخذت قنطاراً من المال .. حرم على الزوج استرداد شيء مادامت غير ناشز ، لأنها استحقت المهر كاملا بتمكين الزوج من نفسها ..

— ﴿ وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ ..

ومن قال غير ذلك ليستحل شيئا مما دفع من مهر ، فقد قال كذبا ، وزورا ، وأكل سحتا ..

ان المرأة فى نظر القرآن لها أن تكون مسلمة ومؤمنة وقانتة وصادقة وصابرة وخاشعة ومتصدقة وأمينة وذاكرة كالرجل تماما ، لها ثواب عملها :

— ﴿ لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض ﴾

* **اصطفاها الله كما اصطفى بعض الرجال :**

— ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم أقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ . .

ولئن كانت بعض النساء يخن أزواجهن ـ فالخيانة في بعض الرجال كذلك ، وحتى لا يساء الظن بالمرأة عند ذكر الخيانة ، أردف ذلك بالحديث عن امرأتين فاضلتين ، قال تعالى :

— ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا ، امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل أدخلا النار مع الداخلين ، وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت : رب أبني لي عندك بيتا في الجنة ، ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ، ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾ .

* **ما يؤخذ من تلك النصوص :**

١ ـ الاعتداء على المرأة لا يستسيغه عقل ولا يقره الدين .

٢ ـ الاستهانة بالمرأة والحكم عليها بالضعف والهوان شطط لا يرضاه الله .

٣ ـ المرأة تملك كما يملك الرجال ، وملكها مصون محترم . .

٤ ـ المرأة لها حق الاختيار وكامل الحرية .

٥ ـ إذا لم تحترم حق الزوج ـ ردت عليه ما أخذت منه .

٦ ـ لا حد لأعلى المهر كما لا حد لأقله .

٧ - الخلوة الصحيحة بالمرأة تثبت حقها فى الصداق .. والله أعلم .. »

* * *

فهل هناك تشريع وضعى أعطى للمرأة هذه المكانة الرفيعة .. انها مستقلة عن زوجها فى ذمتها المالية ، وهى محاسبة على أعمالها كالرجل سواء بسواء .. وله نفس حقوقه مما لا يتنافى مع طبيعة المرأة ..

فقد أسقط الإسلام كل ما يتنافى مع كرامتها مما كان سائدا فى ظل الأفكار والفلسفات والنظم السابقة على الإسلام .. قد احترم آدميتها فمن حقها أن تطلب التحكيم عندما يحتدم الخلاف بينها وبين زوجها حتى لا تنفصم عرى الزواج وحتى يظل الباب مفتوحا ليعود للأسرة تماسكها وترابطها خوفا على مستقبل الزوجة ومستقبل الأولاد .

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾

(١٢٨ النساء)

فالإسلام حريص على العلاقة الزوجية .. ووجد الحلول للمشكلات التى تنجم عن الزواج مثل النشوز .. والعلاج الذى وضعه فى مثل هذه الحالة قوله تعالى :

﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾

(سورة النساء)

المرأة التى تخرج عن طاعة الرجل أو أبغضته .. فعلى الرجل أن يتفاهم مع زوجته بالحسنى .. ويحاول أن يفهمها أخطاءها ، فإذا لم تستجب لهذا العلاج فعليه أن يهجرها فى المضاجع .. فإذا فشل هذا العلاج فيجب اللجوء إلى الضرب غير المبرح .. فإذا لم تنجح كل هذه الوسائل .. وليس هناك سوى الطلاق .. فالطلاق عندما تستحيل الحياة الزوجية هو العلاج لأمراض الزواج الفاشل ..

وقد أجاب الرسول ﷺ على سؤال أحد الصحابة عن حقوق الزوجة على زوجها بقوله :

— « أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ولا تهجر إلا فى البيت » .

والمرأة هى الأخرى من الواجب عليها الحفاظ على بيتها وذلك برعاية زوجها وطاعته .. والرسول ﷺ يقول :

— « الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظ أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته » ..

ومن الأحاديث الجامعة للرسول عليه الصلاة والسلام عن العلاقات الزوجية وصفاتها قوله :

— ﴿ ألا ان على نسائكم حقا ، ولنسائكم عليكم حقا فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذن فى بيوتكم لمن تكرهون ، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن ﴾ .

« الطلاق والتعدد »

— ﴿ إن أبغض الحلال عند الله الطلاق ﴾ .

والطلاق لا مفر منه إذا استحالت الحياة الزوجية بين الزوجين

أو عندما لا يصبح طرفا يطيق الحياة مع الطرف الآخر ..
فالطلاق استثناء لأن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول :
— « تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز له عرش الرحمن » .
حتى ان الإسلام جعل على الإنسان أن يفكر طويلا قبل أن يقدم على الطلاق ، فهو أمر فى غاية الخطورة ، ولا ينبغى أن تكون استحالة العشرة بسبب العواطف ، لأن العواطف متقلبة :

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

(سورة النساء)

وقد جاء يوما أحد الرجال إلى عمر يخبره أنه يريد طلاق زوجته لأنه يكرهها فقال له عمر : ويحك ألم تبن البيوت إلا على الحب فأين الرعاية والتذمم ..

فعمر العظيم صاحب الرؤية الواضحة والرأى الثاقب ، والذى طالما نزل الوحى مؤيدا رأيه فى بعض الأمور يقول للرجل ان البيوت أو الحياة الأسرية تبنى على أشياء أخرى إذا انعدم الحب .. فالأسر تبنى على المودة والرحمة ورعاية الأبناء وما يترتب على هدم هذه الأسس من مستقبل بائس للأطفال ومع كل ما وضعه الإسلام من وسائل للحيلولة دون الطلاق وهدم الأسرة المسلمة .. فإنه أحل الطلاق فى الأمور التى تصبح فيها الحياة مستحيلة بين الزوجين .

وقد عاب بعض المستشرقين وبعض المتفرنجين ان الإسلام قد أباح تعدد الزوجات ، وهذا يجلب الضرر للزوجة الأولى .. وكأن الإسلام قد انفرد بهذا الاتجاه .. مع ان التعدد كان معروفا قبل الإسلام فى

مختلف شعوب العالم القديم ، ولكن الإسلام حدده ونظمه . . وأجاز الزواج بأكثر من واحدة على ألا يزيد على أربعة . . ! واشترط العدل . . وفى نفس الوقت وضح ان هذا الشرط صعب التحقيق ، ومن هنا فضل الزواج بواحدة :

قال تعالى :

— ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ﴾ .

وقال :

— ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾ .

والعدل فى هذه الآية ليس العدل المتعلق بالميل القلبى فهذا ليس فى قدرة البشر ، ولكن العدل هنا فى كل الأمور الأخرى وكان الرسول ﷺ عند السفر يقرع بين نسائه ومن تخرج لها القرعة تصاحبه . . وهذا هو العدل . . أما الميل القلبى فقد كان الرسول يقول عن حبه لعائشة :

— « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك »

فالأفضل أن يتزوج الإنسان بواحدة . . إلا إذا كانت هناك من الظروف ما يجيز للرجل أن يتزوج بأخرى ، والنظرة الواقعية إلى المجتمع نجد ان أغلبيته الساحقة فى الزواج بواحدة .

وقد حسم الإسلام هذه القضية . . ووجدت فيه الشريعة الحل لمشكلات البشر . . ومن العبث التفلسف فى نصوص جاء بها الوحى .

وللدكتور عبدالحليم محمود شيخ الأزهر السابق فى الجزء الثانى من فتاويه . . وهو يتحدث عن الطلاق وتعدد الزوجات رأى جدير بالوقوف

عنده .. فهو يضرب الأمثلة ليوضح عظمة التشريع الإسلامى فى حكمة الطلاق والتعدد .

يقول الدكتور عبدالحليم محمود بعد أن يتحدث عن التعدد والطلاق : وأذكر فى هذا المجال أمرين ذكرتهما آنفا :

* الأمر الأول : هو ما كتبه الكاتب الفرنسى الكبير « ابتين دينيه » .. لقد عاش فى الجزائر فترة من الزمن فى مدينة « بو سعادة » ثم كتب يقول :

« ان مدينة بو سعادة » كانت خالية من ثلاث جرائم حينما كان تعدد الزوجات فيها أمرا عاديا ، لقد كانت خالية من العوانس ، وخالية من اللقطاء ، وخالية من الأمراض السرية .. ولما بدأت فى التفرنج وتقييد التعدد انتشر فيها العوانس ، وانتشر فيها اللقطاء ، وانتشرت فيها الأمراض السرية .. ويأسف هذا الكاتب الفرنسى على أن هذه المدينة لم تتمسك بالإسلام تمسكا يعفيها من هذه الأوبئة الثلاثة ..

* وحادثة أخرى : فى قطر من الأقطار الإسلامية التى قيدت تعدد الزوجات بواحدة ، ولأن وجود هذا القانون وكان منفذا بشدة بحيث يعاقب عقابا أليما كل من خالفه فى الأيام الأولى لوجود هذا القانون . حدث ـ وكنت أنا فى البلدة التى وقع فيها الحادث ـ ان رجلا أصبحت امرأته لا تصلح للناحية الجنسية لطارىء من الطوارىء العادية ، وكان القانون الموجود يحرم التزوج مرة ثانية إلا إذا انفصل الشخص عن الزوجة الأولى بحكم القاضى ولكن هذه الزوجة الأخرى عند هذا الزوج زوجة كريمة على نفسه ، وهى أم لأولاده ولا ذنب لها فى أن يفصلها عنه بالطلاق ، فاستبقاها وتزوج زواجا شرعيا بأخرى ، واستأجر لها شقة ، وكان يبيت عندها .. وبلغ فيه بأنه تزوج بأخرى ، وتربص البوليس به حتى قبض عليه وهو فى غرفة الزوجية وقاده مكبلا فى

الحديد ليعاقب على الجريمة الشنعاء فى نظرهم - وهى جريمة الزواج بأخرى - وذهب إلى القسم ، وبدأ التحقيق ، وكانت الأسئلة كما يلى :

* هل أنت تزوجت بأخرى ؟

— كلا (ويقصد فى نفسه انه لم يتزوج زواجا رسميا حكوميا) .

* ولكنك ضبطت الآن فى غرفة امرأة ليست لك بزوجة ؟

— نعم .

* والتحريات أثبتت أنك تنفق على هذه المرأة .

— نعم .

* وتبيت عندها ؟

— نعم .

* إذن ماذا تكون هذه المرأة ؟

— عشيقة !

وهنا أخلى سبيله باعتباره غير آثم ولا مذنب .. وتركوه ينصرف ولو كان أقر بأنه زوج لهذه المرأة لزج به فى السجن ..

أما فيما يتعلق بالطلاق ، فيكفينا فى الاستئناس على حكمة مشروعيته ما فعلته إيطاليا أخيرا من إباحة الطلاق ، وإيطاليا المسيحية التى بها الفاتيكان .

ويكفينا ما تفعله أمريكا حيث يسافر الذين يريدون الطلاق من ولاية إلى أخرى أى من ولاية تقيد الطلاق إلى ولاية أخرى تبيحه لأجل أن يطلق .. ولعل فى ذلك كله ما يبين حكمة الله فى تشريع التعدد ، وفى تشريع الطلاق ..

على أنه حتى ولو لم تفهم الحكمة لوجب علينا الاتباع ، ما دام الوحى قد أتى بهذه المبادىء صريحة لا لبس فيها ، وما دام عمل الصحابة فى عهد الرسول ﷺ وعلى مرأى ومسمع منه ، وعملهم بعد

وفاته صلى الله عليه وسلم يرشد إلى الوضع الحقيقى فى المسألة الصحيحة ، فبعد ذلك لا قول لقائل .

وكل من قال بخلاف ما نص عليه الوحى الذى طبقه الرسول صلى الله عليه وسلم وطبقه الصحابة بعملهم ، كل من قال بغير ذلك فهو منحرف ، ونعوذ بالله أن يكون فى العصر الحاضر انحراف عما سارت عليه الأمة الإسلامية ، وانطبق عليه الإجماع مدة أربعة عشر قرنا .

قضايا متعلقة بالمرأة

- ◻ الحجــــاب . .
- ◻ النقــــاب . .
- ◻ مصافحة المرأة .
- ◻ صـوت المرأة .
- ◻ قوامة الرجل .
- ◻ العصمة . . فى يد المرأة .

□ الحجاب □

انتشرت ظاهرة الحجاب .. وهذه ظاهرة صحية بلا شك .. فإن تذهب الموظفة إلى عملها ، والطالبة إلى جامعتها .. فى زى يتمشى مع التقاليد الإسلامية فهذا شىء يبشر بالخير .

وإذا كانت هذه الظاهرة شىء طبيعى وعادى يتناسب مع ما قرره الإسلام من جهة ، ويحافظ على كرامة المرأة من جهة أخرى ، إلا أن العجيب أن هناك بعض الأقلام التى وجدت فى الزى الإسلامى ظاهرة للتخلف تدعو للأسف !

وانه على المرأة أن تكون عصرية .. !

وإذا سألت ما معنى أن تكون المرأة عصرية .. قالوا أن تلبس كما تلبس المرأة الغربية المتحضرة .. ويعنى هذا ان على المرأة لكى تتحضر وتصبح امرأة عصرية أن تساير أحدث الموضات الأوربية والأمريكية ، وأن تجرى وراء بدع مصممى الأزياء .. الفستان المحزق فوق الركبة .. والصدر والظهر العاريين .. !

وإذا سألتهم هل صاحبة الصدر والظهر العاريين عندها القدرة أكثر على استيعاب العلم .. أو زيادة الإنتاج .. أو المشاركة فى بناء الحياة .. وأن تكون أكثر قدرة على تربية أطفالها وغرس القيم الأخلاقية النبيلة فيهم .. لم تجد عند أصحاب هذه الرؤى المتفرنجة إلا كلمات جوفاء لا تشفى غليلا ولا تجيب على علامة استفهام .. وكأن العصرية هذه بديهية تعنى التقدم والحضارة والفهم المستنير للحياة .. ان الحجاب يعنى الانغلاق على العصر والتخلف والعودة إلى عصور الظلام .. !

وإذا قيل لهم أن الحجاب يعنى احترام ما جا به الإسلام من مبادىء وقيم . . ويعنى أن التى تلبس هذا الحجاب تريد أن تحترم دينها أيضا وتحترم جسدها . . وأن الحجاب على الجسم وليس على العقل . . وان كثيرا من المحجبات من المتفوقات فى العمل والدراسة ومختلف مجالات الحياة . . وان الحجاب ليس ستارا على العقل . . ولكنه يوحى بأن هذا الجسد ليس للبيع . . وليس نهبا للعيون المتلصصة . . ولا علاقة له بالعمل والإنتاج .

إذا قلت لهم ذلك أصموا آذانهم . . وأخذت ألسنتهم تردد الكلمات المعادة عن العصرية . . والتمدن . . والتفرنج . . وسمعت كلمات عجيبة عن العقد النفسية والكبت الجنسي . . وكأن الدول التى تستبيح العرى خالية من جرائم الجنس وانتهاك الأعراض . . والاغتصاب جهارا نهارا . .

فالعرى ليس حماية . . ولكن انتهاك لحرية الجسد . . ولا علاقة بين الحجاب والتقدم العلمى أو الحضارى أو البحث التجريبى . . ولكن الذين يقولون بمثل هذه الآراء هم أناس أضلهم الهوى ، ولعبت بهم الأهواء . . فحاولوا تزييف الواقع . .

وقالوا ان الحجاب ضد الجمال . . !

ولم يقل الإسلام ان على المرأة ألا تتجمل وألا تتزين وألا تظهر أنوثتها . . ولكن لزوجها . . وليس للآخرين . . وإذا كان الحجاب هو اتجاه نحو التدين . . وجد هؤلاء المتفرنجون أن فيه عودة لعصور التخلف . . مع أن الحاجة إلى التدين على حد تعبير فيكتور فرانكل . . عنصر دفين فى النفس البشرية . . وقد نستطيع أن نخفى على غيرنا شعورنا الدينى ، ولكن إذا تعمدنا إخفاءه على عقولنا الواعية ، وحاولنا أن نساير الاتجاه العصرى فى اعتبار التدين والشوق إلى التعبد من

مخلفات العقائد التى ورثناها عن الماضى العتيق ، وليس هناك حاجة جوهرية إليهما .. لتعرضت نفوسنا لصراع داخلى عنيف أشد خطورة على الأعصاب والصحة النفسية والجسدية من كبت الغرائز .. » . فالتدين هو الاستعانة على الفطرة السليمة التى فطر الله الإنسان عليها :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة الروم)

فحاجة الإنسان إلى الروح لا تقل أهمية عن حاجة الجسد إلى الطعام . والنزوع إلى الروحية تدفع الإنسان إلى الابتعاد عن كل ما يثير فى النفس الشهوات ..

ولا شك ان العرى يثير ما فى النفس من النزوع الجنسى ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

— « ان الدنيا حلوة خضرة ، وان الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعلمون » فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء » .

فالإسلام ينظر إلى المرأة ككائن حى له دوره فى الحياة وفى المجتمع .. وله كيانه وشخصيته .. وخاطها مثل الرجل تماما . فمقياس التفاضل هو العمل الصالح .. ولكن للأسف فإن البعض يحاول أن يفسد معالم الصورة الجميلة للمرأة .. أو على حد تعبير الدكتور مصطفى محمود :

— « نظرة على الشارع وعلى فاترينة الأزياء ومجلات الموضة وصالونات الكوافير وإعلانات الروج والمانيكير وأنواع الباروكات

سوف تشعرنا بمدى الجناية التى جنتها الحضارة المادية العصرية على عقلية المرأة . . ومن الوهلة الأولى سوف نفهم ان هذه الحضارة لم تجعل المرأة الأوربية إلا لعبة أو دمية لإثارة الرغبة والشهوة وإشعال الخيال . . حتى أسماء العطور . . عطر (سكاندال) بمعنى الفضيحة . هكذا أرادوا بالمرأة حينما صمموا لها الفساتين ورسموا لها الفتحات على الصدر والظهر ، وحينما حزقوا لها البنطلونات وضيقوا البلوزات واستدرجوا المرأة من غرورها حينما قالوا لها : ما أجمل صدرك . . وما يجمل كتفيك . . ما أروع ساقيك . . ما أكثر جاذبيتك حينما يكون كل ذلك عاريا .

ووقعت المرأة فى الفخ . . وخلعت ثوب حيائها ، وعرضت جسمها سلعة تنهشها العيون .

قالوا لها البيت سجين ، وإرضاع الأطفال تخلف ، وطهو الطعام بدائية . . مكانك إلى جوار زوجك فى المصنع وفى الأتوبيس وفى الشارع . . خرجت المرأة من البيت لتباشر ما تصلح له وما لا تصلح له من الأعمال . . وألقت بأطفالها إلى الشغالة . . وقالوا لها ان جسمك ملكك وأنت حرة فيه بلا حسيب ولا رقيب ، وليس لك إلا حياة واحدة وكل يوم من أيامك لن يعود . عيشى حياتك بالطول وبالعرض . . أنفقى شبابك قبل أن ينفد . . واستثمرى أنوثتك قبل أن تشيخ ولا تعود لها سوق . . وساهم الفن بدوره ليروج هذا المفهوم . . ساهمت السينما والمسرح والإذاعة والأغنية والرقصة والقصيدة . . ودخلت الغواية إلى البيوت من كل باب وتسربت إلى العقول . . وتخللت الجلد ، وأشعلت الخيال بسعار الشهوات . . وأمرضت القلوب بداء الخيانة . . وأصبحت المثل العليا فى المجتمع هى أمثال مارلين مونرو وكلوديا كاردينالى ولو برجيدا . . وأصبحت البطلات أصحاب المجد عندنا من أمثال شفيقة

القبطية وبمبة كشر ومنيرة المهدية .

وبعد أن يعدد مظاهر الفساد فى المجتمع يقول :

— « لم ينظر الإسلام للمرأة على أنها دمية أو لعبة أو متاع . . بل نظر إليها على انها أم ورأى فيها شريكة عمر لا شريكة ليلة . وقال عنها القرآن الكريم انها السكن والمودة والرحمة وقرة العين . واختار لها البيت والحجاب والرجل الواحد تعظيما لقدرها وحفاظا عليها .

وفى موضوع آخر يقول الدكتور مصطفى محمود عن (المرأة) :

— ان الرجل له أن يصنع أى شيء ولكن المرأة وحدها هى التى سوف تصنع الرجال . . وهذا غاية التكريم وغاية الثقة هل هذا هو التخلف . . أم أن التخلف الحقيقى هو أن تسير المرأة نصف عارية حلمها إثارة رجل وغايتها متاع ليلة . . ومثلها الأعلى امرأة هلوك يقتتل حولها السكارى مثل الراحلة بمبة كشر . كم خدعوك يا أخت . . وكم استدرجوك إلى حتفك . . وخلعوك من عرشك وانتزعوك من خدرك . . وباعوك فى سوق النخاسة رقيقا تثمن بقدر ما فيها من لحم . . وأنت نصف الأمة . . ثم أنك تلدين لنا النصف الأخر . . فأنت أمة بأسرها ولا يستطيع الرجل أن يقود التطور وحده . . ترى هل آن الأوان لتعيدى النظر . ترى هل آن الأوان لتعرفى قدرك وتعرفى دورك » .

فتكريم الإسلام للمرأة بديهية لا تحتاج إلى جدل ولا مناقشة والجدل حول حجاب المرأة جدل سقيم . .

فما دمت مؤمنا بالله فعليك اتباع ما يأمر به الله . . والله هو الذى خلق الخلق . . وهو الذى يعرف خفايا نفوسهم . . ويعرف ما ينفعهم وما يضرهم .

والقرآن الكريم يحدد زى المرأة عندما تترك البيت لشأن من شئونها

أو عند مقابلتها غير زوجها ومحارمها .

يقول سبحانه وتعالى فى سورة (الأحزاب) :

— ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهم من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما ﴾ .

وقوله فى آية أخرى من سورة النور :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُولِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة النور)

ويفسر ذلك شيخ الأزهر الشيخ جاد الحق على جاد الحق ، وهو يتحدث عن زى المرأة فى كتابه (النبى فى القرآن الكريم) :

— والجلابيب واحدها جلباب وهو ما يلبس فوق غيره من الملابس ليستر ما تحته .. وهاتان الآيتان متكاملتان ، وقد حددا ما يجب أن ترتديه المرأة بحيث يحجب جسدها كله فلا ينكشف من المرأة الملتزمة إلا الوجه وهو من منبت الشعر إلى أسفل الذقن وما بين شحمتى الأذنين

بحيث لا يظهر شيء من الشعر ولا القرط (الحلق ولا الأذن) ولا شيء من العينين ولا يكون الثوب مظهر لما تحته ولا ضيقا وصاف بفصل أجزاء الجسد ، ولا لافتا للنظر بلون أو تفصيل يسترعى أنظار الآخرين . ويدخل فى حكم التبرج المنهى عنه فى القرآن الكريم . فالمطلوب من المرأة بمقتضى هاتين الآيتين أن تغطى رأسها ورقبتها وصدرها ، وأن يكون ثوبها ساترا لجميع جسدها ، فلا يرى منه إلا الوجه والكفان . . هذا هو زى المرأة المقرر بالقرآن الكريم . . ولقد فسر الرسول صلى الله عليه وسلم قوله سبحانه وتعالى فى آية سورة النور (إلا م ظهر منها) قال : الوجه والكفان .

□ النقاب □

وهو ما تضعه النساء على الوجه غير لازم ، كما يدل على ذلك حديث أسماء رضى الله عنها حين دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثوب رقيق يظهر ما تحته فأعرض عنها وقال : «يا أسماء ان المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح لها أو لا يحل أن يرى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفيه صلى الله عليه وسلم .

ولو كانت تغطية الوجه من الواجبات لأمرها بذلك الرسول ﷺ ولكن بمقتضى الحديث أنه ليس بلازم ، بل يحل كشفه . . ولقد اتفق الفقهاء أخذا بالوقعات الكثيرة الواردة فى السنة على أن للمرأة أن تبدى وجهها فى الصلاة ولو رآه الغرباء .

فما تفعله بعض النساء والبنات من تغطية الوجه من باب المغالاة فى

تدين هو عمل شخصى وليس بحكم شرعى . وإذا أجاز الإسلام للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها فإنه ليس مقتضيا أن تبالغ فى استعمال الألوان والأصباغ والظلال لتثير الناس وتستلفت الأنظار إليها ، فإن كل ذلك وما يفعله كثير من النساء الآن يدخل فى باب المحظور . . وإنما المباح مما ظهر من الزينة ما لا يستلفت الأنظار ولا يثير الغرائز ولا يشوه المنظر ، ولا يغير خلق الله وإلا كان محرما قولا واحدا وان جرت به العادة ، أو المألوف بين الناس . .

□ المصافحة بين المرأة وغير محارمها :

ويحدثنا عن مصافحة المرأة لغير محارمها من الرجال فيقول :

— لما قدم رسول الله ﷺ من الحديبية عام ستة من الهجرة جمع نساء الأنصار وأرسل إليهن عمر بن الخطاب للمبايعة ، فتلا عمر عليهن آية المبايعة من سورة الممتحنة قلن : نعم .

فمد عمر يده خارج الباب ، ومدت الناس المبايعات أيديهن من داخل ، ثم قال : اللهم اشهد . . وقد وضع عمر يده فى أيديهن مبايعا وبلا حائل . . وعمر هو عمر غيرة وورعا وشدة . . وقد أخرج هذه الواقعة أحمد والبيهقى وابن خزيمة وابن حبان .

أما أن الرسول ﷺ لم يبايع النساء بيده أو لم يسلم على امرأة أجنبية فتلك من خصوصياته كالوصال فى الصوم .

ومن ثم فعدم المصافحة بين بعض الرجال والنساء يدخل فى باب التورع الشخصى ، وليس محرما إذ لم يرد نص محرم حاسم .

وذلك بيان لواقع المصافحة باليد لمجرد المصافحة ، أما ما يفعله

بعض الناس بالإمساك بيد امرأة أجنبية بحجة المصافحة والتسليم فذلك يدخل فى باب المحظور سدا للذرائع والإثارة .

□ صوت المرأة :

ويرى الشيخ جاد الحق على جاد الحق وهو يتحدث عن صوت المرأة انه ليس عورة ، وهذا القول على عمومه وإطلاقه لا يستند إلى دليل صحيح فى الإسلام وإنما الصحيح والمعقول ان النساء على عهد الرسول ﷺ كن يحادثن الرجال ويسألن الرسول ﷺ فى أمور الدين ويتقاضين أمامه ، ويذهبن إلى الأسواق ويمارسن نشاطهن متحدثات .. ومجادلات .. وكان منهن راويات للحديث إلى الرجال .. وشاعرات .. وفقيهات .. ولم ينه الرسول ﷺ ولا أحد من أصحابه النساء عن مجرد الحديث مع الرجال . فالقول بأن صوت المرأة عورة بإطلاق لا سند له .. وإنما يصبح كذلك إذا صاحب الحديث تكسر وطراوة وتدليل وتكلف على الوجه الذى نهى عنه القرآن فى قوله تعالى فى سورة الأحزاب :

— ﴿ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا ﴾ .

أى فلا ترفعن الكلام عند مخاطبة الرجال وتخرجن عن المألوف فى المحادثة من الكلام العف الحسن دون لين ولا تكسر . والحديث مع الرجال الأجانب غير الحديث مع الأزواج .. وليس هذا عدم ثقة بالنساء وإنما حماية لهن ممن لا خلق لهم من الرجال ، ومن ثم فإنه محظور شرعا على المرأة أن تحادث الرجال الأجانب بطريقة تغريهم بها ...

ينبغى أن يكون حديثها مستقيما لا لين فيه حتى لا يطمع فيها من كان فى قلبه مرض وغرض .

وواضح من هذا أن المرأة لها دورها الذى لا ينكر فى بناء الحياة .. وأن الذين يملأون الدنيا دويا وضجيجا عن أن المرأة لم تخلق إلا متاعا للرجال مجرد هراء .. وأن الذين يريدون أن يحجروا عليها بين جدران صماء لا يعرفون حقيقة الإسلام وجوهره .

فالإسلام الذى أباح لها البيع والشراء والتصرف فى مالها هو الإسلام الذى أباح لها اختيار شريك العمر . ويروى أن فتاة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت له : ان أبى زوجنى ابن أخيه ليرفع بى خسيسته .

فجعل النبى أمرها إليها ، إلا أنها قالت : قد أجزت ما صنع أبى .. ولكنى أردت أن أعلم النساء : أن ليس للآباء من الأمر شيء .. وقد روى هذا النسائى عن عائشة .

.. ومن يسمح بكل هذا للمرأة .. ويرفع مستواها إلى هذه المكانة كيف يبيح المتفرنجون أن يقولوا عنه ما يقولون إلا لأنهم اما لم يدرسوا الإسلام دراسة واعية مستنيرة وإلا لمرض فى قلوبهم .

ولنسمع للدكتور على عبدالواحد وافى وهو يقول فى كتابه (حقوق الإنسان فى الإسلام) :

— .. فحالة المرأة فى فرنسا مثلا كانت إلى عهد قريب ، بل لا تزال فى الوقت الحاضر أشبه شيء بمحاولة الرقى المدنى ، فقد نزع منها القانون صفة الأهلية فى كثير من الشئون المدنية كما تنص على ذلك المادة السابعة عشرة بعد المائتين من القانون المدنى الفرنسى إذ تقرر أن : « المرأة المتزوجة ، حتى لو كان زواجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها ، لا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها ولا أن ترهن ولا أن تملك بعوض أو بغير عوض بدون اشتراك

زوجها فى العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية » .. أين هذا من التشريع الإسلامى ..

وأين هذا من المرأة المسلمة التى تظل محتفظة باسمها مقرونا باسم والدها وعائلتها ، بينما تفقد كل هذا فى الغرب وتصبح مدام فلان !

وأين موقف النبى عليه الصلاة والسلام من المرأة عندما يقول : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى » من هذه الدعوات العجيبة التى سادت فى الغرب زمنا طويلا وما زالت آثارها تنعكس على العديد من هذه المجتمعات عندما كانوا يرون ان المرأة قرينة الشيطان ، أو أنها مثل الشيطان ، أو على تعبير أحدهم لتلاميذه وهو « سان بونافنتور » بقوله عن المرأة : إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائنا بشريا ، ولا كائنا وحشيا .. ان الذى ترونه هو الشيطان والذى تسمعون هو فحيح الأفعى !

وليس هناك دستور وضعى صان حقوق المرأة ووضعها الاجتماعى وقرر الحفاظ على كيان الأسرة قويا متماسكا كما فعل الإسلام .. حتى إذا اعترضت بعض الأمور الحياة الأسرية .. فقد حث الإسلام على الوسائل الكفيلة بالحفاظ على هذه الحياة ، حتى تمر عواصف الفرقة ، وعوامل الخلاف .. وتنتهى الأزمات النفسية التى تؤدى إلى ما لا يحمد عقباه ، لذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز له عرش الرحمن » .

ولكن حين تستحيل الحياة الزوجية تماما .. هنا لا يقف الإسلام موقف المسيحية بأن الزواج عقد فى السماء فلا يحل على الأرض » . فهذا الرباط الأزلى إذا تعرض لزلازل لا يمكن مقاومته .. لا يصبح أمام الزوج أو الزوجة فى ظل هذا التعنت إلا الخيانة الزوجية ، والبحث عن الخليلات .. وما يجره كل ذلك على انحلال المجتمعات وتفسيخها .

□ قوامة الرجل :

وهناك من يرى أن قوامة الرجل تعنى عدم المساواة بين الرجل والمرأة .. ونسى هؤلاء أن القوامة للرجل لا للمرأة .. وذلك لسبب طبيعى جدا .. وبديهى جدا وهو أن الرجل هو المكلف بالإنفاق وبالتالى فمسئوليته أكبر .. وهى القوامة التى تبنى على المودة والرحمة كما يقرر القرآن الكريم .

— ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم ﴾ .

والدرجة هى الإنفاق .. والتى ذكرها الله سبحانه وتعالى بقوله :

— ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ .

ويفسر هذه الآية الكريمة الشيخ محمود شلتوت بقوله :

— ولقد يكون فى قوله ﴿ فضل الله بعضهم على بعض ﴾ دون أن يقول (بما فضل عليهن) ، كما قال فى الإنفاق .. ما يرشد إلى أن هذا التفضيل ليس كتفضيل بين أعضاء الشخص الواحد على البعض الأخر .. وانه لا غضاضة فى ذلك ما دام الخلق الإلهى اقتضى أن يكون الرجل فوق المرأة فى القوة والقدرة على الكسب واحتمال المشاق ومتاعب الحياة التى تعترف بها المرأة نفسها بأنه لا طاقة لها به .. والتى يرجع فيها بمقتضى فطرتها .. إلا أن الرجل تطلب منه المعونة ، وأن يقوم مقامها وأن يسد حاجتها فى تلك الناحية .. إذا قدر أن يعرض لها شىء منه .

هذه هى درجة الرجال عن النساء وهى درجة معروفة لكل من يرأس مجتمعا من المجتمعات . قل ذلك أو أكثر . وليس من الحكمة أن يترك

مجتمع دون أن يجعل له رئيس يرجع إليه عند الاختلاف وتضارب الآراء وإلا ضاعت المصالح وانحلت عروة الاجتماع ، وصارت الحياة الزوجية التى هى فى الواقع مجتمع خاص يعمل لمصالح خاصة مملوءة بالفوضى والاضطراب ، فلا يستقر لها قرار ولا ينتظر لها بقاء .. وبذلك تنقلب رأسا على عقب .. وتضيع عوامل الأسر وتكوينها ويمتد ذلك إلى الأمم المكونة من الأسر ، وبذلك يصبح العالم لا رابطة تربطه ، ولا جامعة تجمعه .. تتفكك الوحدات .. فتثور اللبنات ، وهذا لا يتفق وحكمة الحكيم فى خلق الإنسان وتكليفه عمارة الكون .. فسبحانه من عزيز حكيم .

□ العصمة .. فى يد المرأة :

ولأن الإسلام هو دين التفتح الحضارى ، والنضج ، ولأنه يعلم تماما قيمة الزواج باعتباره أساس كل المجتمع .. ولأن هذا العقد من الخطورة بمكان .. ولحرصه على ضمان المرأة الاستقرار فى ظل بيت تسعد فيه .. فإن الإسلام أتاح للمرأة إذا اشترطت فى عقد الزواج أن تكون عصمتها بيدها فلها ذلك ، ولكن ذلك كما يقول الدكتور عبدالحليم محمود لا ينبغى أن يكون للرجل حق الانفصال عنها بالطلاق .. وإنما يكون هناك مساواة بينهما فى وقوع الانفصال إذا أحب .

أمهات المؤمنين

والحديث عن المرأة المسلمة يسوقنا إلى الحديث عن أمهات المؤمنين ، فهم القدوة والمثال .. فقد عشن فى كنف رسول الله ﷺ وتأسين به .. وعرفن منه الحلال والحرام .. وعرفن ما ينبغى أن تكون عليه المرأة المسلمة .. وروين عنه الكثير من الأحاديث .

ومعرفة سيرة حياتهن يضيء لنا كثيرا من الجوانب التى يجب أن تتحلى بها المرأة .. وهى ترى أمامها هذه النماذج الرائعة من النساء .. اللائى فيهن ضعف النساء .. وفيهن أيضا قوة الإرادة التى جعلتهن فى مكان الصدارة عند الحديث عن المرأة المسلمة .

وقد أطلق عليهن ﴿ أمهات المؤمنين ﴾ . لأنهن لن يتزوجن بعد الرسول ﷺ ، وبالتالى فكل واحدة منهن تعتبر بالنسبة لكل مسلم كأمه .. وهل يكن الإنسان للأم إلا كل احترام وتقدير وإعزاز وإجلال .

* * *

خديجة بنت خويلد

رضى الله عنها

﴿ لا والله ما أبدلنى الله خيرا منها ..
آمنت بى إذ كفر الناس وصدقتنى
إذ كذبنى الناس .. وواستنى بمالها
إذ حرمنى الناس .. ورزقنى الله منها
الولد دون غيرها من النساء ﴾ .
(محمد عليه الصلاة والسلام)

كانت مكة تعيش أيامها كما تعودت أن تعيش . .

أيام رتيبة مملة . . وليال أكثر رتابة . . يتحدثون خلالها عما يجرى فى مجتمع مكة . . أو يرددون أشعار هذا أو ذاك من الشعراء . . وهو يمدح أو يذم كبيرا من كبرائهم . . فإذا زاد ضجرهم خرجوا يطوفون حول الكعبة يعظمون ما بها من أصنام .

فى هذا المناخ نشأ محمد بن عبد الله ﷺ . . عرفته مكة . . جميل المحيا . . راجح العقل . . بليغ الكلمات . . قوى الحجة . . أمينا . . صادقا . . متكامل الصفات . . بعيدا تماما عن لهو شباب مكة وعبثهم . . لم يسجد لصنم قط . .

والذين اقتربوا منه عرفوا عنه عزوفه التام عما كان يبهر غيره من الشباب ، أما حرفته فهو رعى الغنم . .

وسمته التفكر الطويل . . والتأمل فى كل ما حوله من مظاهر الكون . . السماء وما فيها من نجوم . . والأرض ما فيها من جبال ووديان وسهول . .

* وذات يوم علم عمه أبو طالب أن خديجة بنت خويلد . . سيدة مكة الثرية الفاضلة والتى رفضت الزواج ممن تقدم إليها من كبار رجالات مكة لأنها خشيت أن يكون الزواج منها طمعا فى أموالها ، وكانت قد تزوجت مرتين من قبل .

علم أبو طالب بأنها تريد من يخرج ليتاجر لها فى مالها فى الشام . . وكانت تعطى له « زوجا » من الابل نظير هذه المهمة . . فعرض عليها أن يقوم بهذه المهمة محمد بن عبد الله ﷺ . . فوافقت السيدة الفاضلة وهى لا تكاد تصدق ما تسمع . . فقد سمعت عن محمد وعفته وطهارته وذكائه وأمانته الكثير . . وقررت أن تعطيه أربعة من الابل عن رحلته تلك . .

ووافق محمد بن عبد الله ﷺ أن يتاجر في مال السيدة خديجة ، وأن يسافر إلى الشام في هذه المهمة .. فهو يحب السفر لأن السفر يتيح له أن يخلو إلى نفسه .. وأن يفرغ لتأملاته .. انه سوف يسير في نفس الطريق الذى سلكه وهو يتجه نحو الشام مع عمه أبي طالب عندما كان صبيا .. حيث أنه سوف يمر على أديرة الرهبان .. وعلى بلاد طالما سمع عنها ..

وأرسلت خديجة معه خادمها ميسرة ..

واشترى لها محمد وباع .. وربحت تجارته .. بينما عاد ميسرة مبهورا بشخصية محمد بن عبد الله ﷺ .. الشاب الرزين .. صاحب الفكر العميق .. والكلمات التى تسيل رقة وعذوبة والذى أوتى جوامع الكلم .. !

وعاد محمد بن عبد الله ﷺ فاستقبلته خديجة باحترام يليق بشخصية بالغة الابهار .. واستمعت إلى ما يقوله عنه ميسرة بشغف وحب شديدين ..

وربما لاحظت صديقتها (نفيسة بنت منية) مدى تعلقها بمحمد بن عبد الله ﷺ ، فأخبرت خديجة بأنه الشاب المناسب الجدير بالزواج منها ..

وفهمت نفيسة أن رأيها لقى قبولا عند صديقتها واستأذنتها أن تفاتح محمدا في هذه الرغبة ، على أن تكفيه خديجة المال ..

وعرض محمد الأمر على عمه أبي طالب الذى سره ما أقدم عليه ابن أخيه وأمهره عشرين ناقة من ماله ..

ويوم الخطبة وقف أبو طالب يلقى خطبة الزواج .. وقال مما قاله :

— « الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، ونسل إسماعيل وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا وبعد : فإن محمدا ـ ابن أخى ـ شاب

لا يوزن به فتى من قريش إلا زاد عليه شرفا وخلقا وعقلا ، وان كان قليل المال فالمال ظل زائل ، وله فى « خديجة بنت خويلد » رغبة ولها فيه مثل ذلك ، وقد ساق محمد إليها عشرين ناقة مهرا » .

وفى رواية أخرى انه أمهرها اثنتى عشرة أوقية ذهبا . .

ورد على خطبة (أبو طالب) ابن عم خديجة ورقة بن نوفل فقال :

— « الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على مم عددت فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله . . لا تنكر العشيرة فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم ولا شرفكم ، وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم ، فاشهدوا يا معشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله ﷺ » .

وتقول الروايات أن عمرها عند تزويجها الرسول كان أربعين عاما وكان عمره خمسا وعشرين سنة . .

وهكذا بدأ محمد حياته الجديدة . . فقد توافر له المال الذى يتيح له أن يبتعد عن الانغماس وراء الجرى خلفه . . وأصبحت تأملاته وتفكره فى ظواهر الحياة يشغل معظم أوقاته . . انه يريد أن يستشف ما وراء هذا الكون . .

وعندما شرعت مكة فى إعادة بناء الكعبة وكان ذلك قبل البعثة بخمس سنوات . . واختلفوا فيمن يكون له شرف وضع الحجر الأسود مكانه . . حسم محمد هذا الصراع عندما احتكمت مكة لمن يكون أول من يدخل بيت الله الحرام . . وكان هذا الشخص الذى ساقته العدالة الإلهية حتى يوقف نزيفا من الدم ما كان ليتوقف لو اندلعت الحروب بين القبائل . . وكان رأيه أن يوضع الحجر الأسود فى ثوب ، وتشترك كل القبائل فى حمل جزء من هذا الثوب . . وقام بوضع الحجر الأسود فى مكانه . . وهكذا انتهت هذه الفتنة .

ويقول الرواة أن محمدا فى حياته الجديدة ، قد سعد بالاستقرار العائلى .. فخديجة سيدة موفورة العقل .. وعلى جانب كبير من الثراء .. وكان حبها لمحمد دافعا له أن توفر له ما يمكن أن يسعد الرجل .. ثم رفرفت السعادة على الدار عندما أنجبت « القاسم » .. وبعد عام وضعت « زينب » .. غير أن القاسم مات بعد سنة ونصف من عمره .. !

وصبرت خديجة .. وصبر محمد لفقد القاسم .. غير أن خديجة أرادت أن تسرى عن الرسول فوهبته أحد مواليها (زيد بن حارثة) وكان زيد قد سرقه البعض ، وباعه فى سوق عكاظ ، واشتراه لخديجة ابن أخيها (حكيم بن حزام) .. وقد شعر هذا الغلام بحب محمد بن عبد الله ﷺ .. فآثره على الجميع حتى ان أهله عندما استدلوا عليه رفض العودة إليهم ليعيش عيشة الأحرار ، مؤثرا البقاء بجانب محمد بن عبد الله ﷺ ..

وعندما رأى محمد هذا الإخلاص من زيد أشهد الناس أن زيدا بمثابة ابنه وقال لهم :

— « يا من حضر من قريش وسائر العرب أشهدكم أن زيدا ابنى يرثنى وأرثه ، وانه حر أمره بيده » !

ومن هذه القصة نرى مدى الرحمة والعطف والتكامل فى شخصية أعظم من سارت له على الأرض خطى .

وكان محمد بن عبد الله ﷺ يتردد على غار حراء .. يطيل التأمل والتفكير .. فما أكثر ما سأل نفسه عن السماء .. وعن الأرض .. وما وراء كل هذا الكون المنسق البديع .. وما كنه هذه القوة العظمى التى تدبر أمور الكون .. !

وشفت روحه حتى ان ما كان يراه فى منامه يتحقق فى الواقع .. ثم

أخذ يرى أشياء غريبة عندما يخلو إلى نفسه .. فهو يرى نورا أو يسمع صوتا .. ولا يدرى لذلك سببا .. حتى خشى على نفسه أن يكون قد ألم به شيء ! أو يكون ذلك وسوسة من الجن ، وعندما كان يعرض ما يراه .. وما يسمعه على زوجته العظيمة تقول له وهى تهدىء من روعه :

— « معاذ الله ، ما كان الله ليفعل ذلك بك ، فوالله إنك لتؤدى الأمانة » وتصل الرحم ، وتصدق الحديث فلا تقترب منك الشياطين » !

وتمضى الأيام ..

وبينما هو فى غار حراء .. إذ هبط عليه جبريل ليخبره أنه مبعوث الله إلى خلقه .. وأنه خاتم الأنبياء ، ثم أخذ يقرئه أول ما نزل من القرآن الكريم :

— ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

ورأى جبريل وهو يرتفع بعدها إلى السماء ..

وعاد محمد ﷺ إلى منزله خائفا يرتجف .. وعندما قص على خديجة ما سمعه وما رآه قالت له :

— أبشر يا ابن العم واثبت ، فوالله انى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

وذهبت خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل لتقص عليه ما قاله لها محمد .. وما كان من ورقة إلا أن صمت قليلا ثم أخذ يقول : قدوس .. قدوس .

والتفت إلى خديجة وقال لها :

— لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الملك الأكبر الذى كان يأتى موسى فقولى له فليثبت ولا يخشى شيئا » .

وعادت خديجة . . لترى زوجها وقد تصبب العرق على وجهه بعد أن أفاق من نومه . . فقد جاءه الوحى . . وكانت كلمات الوحى :

— ﴿ يا أيها المدثر . قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر ﴾ .

لم يعد الأمر تخيلات . . انه واقع جديد . . وانه نبى هذه الأمة حقيقة لا شك فيها . . وانه مبلغ رسالة خالدة خلود الحياة . . وبأن هذه الرسالة ستغير المسار الإنسانى فى الكون كله . . وليس فى مكة وحدها . . ولم يعد هناك سوى تبليغ هذه الرسالة . . مهما كانت المصاعب التى سوف يصادفها . . وان محمدا ليعرف معرفة اليقين أن الأمر ليس سهلا ولا هينا . . فأناس عاشوا على تقديس ما كان يعبد الأباء والأجداد من الصعب عليهم أن يصدقوا من جاء يقول لهم اعبدوا الله وحده لا شريك له . . وذروا عبادة الأصنام التى لا تنفع ولا تضر . .

ومحمد يعرف تمام المعرفة أن هناك من سيحارب الدعوة لا لوضوحها ولا لصدق مبلغها ولكن حقد وكراهية أن يرتفع إنسان بالنبوة إلى مكانة تسمو على مكانة علية القوم فى مكة . . !

وهو يعلم تماما أن عقولا درجت على تقديس قيم وعادات بالية لا يمكن لهم بسهولة أن يستبدلوا بها فكرا جديدا . . وعقيدة جديدة . . محمد ﷺ بذكائه الحاد يعرف كل ذلك ويعرف ان الطريق صعب للغاية . . فيقول لزوجته العظيمة :

— « قد انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرنى ربى أن أنذر الناس ، وأن أدعوهم إلى عبادة إله واحد . . فمن ذا أدعو ومن ذا يجيب ؟ !! » .

وكانت خديجة أول من آمنت به من النساء . .

وعندما سمع ورقة بن نوفل من الرسول ﷺ ما رأى من أمور الوحى قال له :

— « والله الذى نفسى بيده انك لنبى هذه الأمة »

ثم قال له :

— ليتنى أعيش لأنصرك حين يعاديك قومك ويخرجونك من بلدك !!

ويدهش خاتم النبيين وهو يقول له :

— أيخرجوننى من مكة ؟ !

وقال له ورقة : ما جاء نبى برسالة من عند ربه مثل ما جئت به إلا عاداه قومه وأخرجوه من بلده .. ولئن أدركت هذا اليوم لأنصرنك نصرا مبينا !

وتمضى الأيام ..

تعلم قريش بالدعوة .. ولكنها لم تأبه بها فى أول الأمر ، فقد ظنوا أن الأمر لا يعدو أن تكون دعوة محمد بن عبد الله ﷺ مثل الدعوات التى سبقته من اناس نبذوا عبادة الأصنام .. وعبدوا الله على دين النصارى .. أو تحدثوا فى الحكمة من أمثال قيس بن ساعدة وأمية ابن الصلت وورقة بن نوفل .. ولكن ما كادت تمضى السنوات الثلاث الأولى من نزول الوحى حتى جاء الأمر الإلهى بأن يجاهر بالدعوة .. وأن يبدأ بعشيرته الأقربين .

— ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون ﴾ .

ودعا محمد عشيرته إلى طعام فى منزله .. وبعدها قال لهم :

— ما أعلم إنسانا فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به .. فقد جئتكم بخيرى الدنيا والآخرة .. وقد أمرنى ربى أن أدعوكم إليه .. فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر ؟

ولكن أهله انصرفوا مستهزئين بما قاله الرسول ﷺ .. وبعد ذلك بأيام صعد النبى عليه الصلاة والسلام وجمع أهل مكة يعرض عليهم الإسلام .. فلما التف حوله الناس وسمعوا من الرسول ما سمعوا صاح به عمه أبو لهب :

— تباً لك سائر هذا اليوم ألهذا جمعتنا ؟ !

ونزل قوله تعالى :

— ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب ﴾ .

وبدأ الصراع بين قوى الشرك وبين دعوة الرسول الخاتم .. وخديجة رضى الله عنها تؤازر النبى بكل ما تملك من طاقة ومال .. وصدق الرسول العظيم عندما قال لأم المؤمنين خديجة .. وقد تهيأ لنشر نور الله :

— « انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس وأن أدعوهم إلى الله وعبادته ، فمن ذا أدعوه ؟ ومن ذا يستجيب لى ؟

فما كان من خديجة العظيمة إلا أن ثبتت فؤاده .. ووقفت بجانبه .. لم تتخاذل .. ولم تجد مبررا يبعدها عن مجابهة طغيان مكة وعبثها مع زوجها العظيم ..

انها تعلم علم اليقين أن محمدا الصادق الأمين .. الذى لم يعرف عنه أحد من الناس خيانة لعهد ، أو عبادة لصنم ، أوحنثا فى يمين .. لا يمكن لمثل هذا الإنسان الكامل فى شمائله .. الذى لم يكذب على الناس ، أن يكذب على الله ..

من هنا فقد كرست حياتها للدفاع ، عما يدعو إليه خاتم رسل الله .. وأخذت الدعوة تشق طريقها عندما أسلم أبو بكر من الرجال وعلى

ابن أبى طالب من الأطفال ، وبإسلام أبى بكر دخل الإسلام بعض أصدقائه ممن لهم مكانة فى مكة من أمثال عثمان بن عفان .. وعبدالرحمن بن عوف .. وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ..

وإذا بمكة تثور ثائرتها ..

وإذا بها تعلن حربا لا هوادة فيها على هذه الدعوة ، وتعذب المستضعفين من المسلمين .. وإذا بشهداء يتساقطون (كياسر) وزوجته سمية .. وبينما يزداد طغيان أهل الكفر وعنادهم دخل فى الإسلام شخصيات جديدة .. وأصبحت الدعوة نورا يبدد ظلمات الجهل والجاهلية .. زاد الطغيان .. كلما زاد النبى وصحابته تمسكا بالإيمان ..

وجن جنون مكة .. وظهر الحسد واضحا فى تصرفات سادتها فبعد أن عرفوا أن ما يدعو إليه محمد يرفع من القيم الإنسانية .. ويهدى إلى التى هى أقوم .. ولم يعد هناك خلاف حول ما يدعو إليه .. فهو يدعو إلى الطهر والاستقامة والبعد عن الفحشاء والمنكر .. وهذا ما يتطلبه الإيمان بالله الواحد الأحد الذى خلق كل هذا الوجود .. لم يعد فى استطاعتهم إنكار ما جاء به من بيان واضح ورؤية واضحة .. فعمى الحقد والحسد قلوبهم .. حتى أن (الوليد بن المغيرة) قال :

— أينزل القرآن على محمد وأترك أنا كبير قريش وسيدها ، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف ونحن عظيما القريتين :

وينزل قوله تعالى :

— ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ﴾ ..

وقال أبو جهل وهو يعبر عما يمتلىء به قلبه من حسد :

— تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف .. أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا .. وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ؟ !

ومن هذا الكلام يتضح مدى عداوتهم للدعوة الجديدة بدافع من الغيرة والحسد ، أن يأتى من بنى هاشم نبى ، فيزدادوا شرفا بهذه النبوة ، وتسمو مكانتهم على مكانتهم !!

شقت الدعوة طريقها رغم الحصار .. والتعذيب .. والسخرية من الداعى والدعوة ..

ويئست مكة تماما من أن تثنى محمدا عن عزمه ..

وكانت أم المؤمنين خديجة بجانبه .. ترعى أولاده ، وتسهر على راحته .. وكانت قد رزقت منه قبل المبعث بالقاسم الذى مات صغيرا .. وزينب ورقية وأم كلثوم ، وفاطمة ، وجاء « عبد الله » بعد المبعث ومات بعد فترة قصيرة ..

وقد تزوجت « زينب » بنت الرسول أبا العاص بن الربيع .. وهو ابن أخت خديجة ..

كما أن « عتبة وعتيبة ، ابنى أبى لهب كانا قد خطبا ابنتى الرسول الكريم (رقية وأم كلثوم) وهناك روايات تقول أنهما تزوجا من كريمتى الرسول وأرغمتهما أمهما أم جميل على تطليقهما عندما نادى الرسول بالإسلام .. وهناك من يقول أنهما خطبا لابنى أبى لهب .. وعندما أعلن النبى الدعوة أرغمهما أبو لهب على أن يطلقا ابنتى الرسول .. فتزوجت رقية وكانت شبيهة بأمها من عثمان بن عفان رضى الله عنه وقد عاشت رقية مع زوجها ، وهاجرت معه إلى الحبشة فى هجرته إليها ، كما هاجرت معه عندما هاجر إلى المدينة وقد انتقلت رقية إلى جوار ربها

عند عودة المسلمين وانتصارهم فى غزوة بدر ...

أما فاطمة صغرى بنات الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام فقد ولدت قبل البعثة بخمس سنوات .. فقد كان والدها العظيم فى الخامسة والثلاثين من عمره .. وكانت شبيهة بوالدها العظيم .. فى طريقة كلامها ومشيتها .. وكان والدها يحبها حبا جما .. !

ويروى الرواة .. كيف أن أبا جهل كان قد أمر بعض سفهاء مكة (عقبة بن أبى معيط) بأن يرمى بعض القاذورات على الرسول وهو يصلى بالكعبة فرمى (بكرشة شاة) على الرسول وهو ساجد .. وهم يتضاحكون ويتغامزون وجاءت فاطمة لتزيل هذه الأقذار عن والدها العظيم .. وهى تبكى ..

وقد دعا الرسول ربه :

— « اللهم عليك بأبى جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة ابن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف وعقبة بن أبى معيط ..

ويقول ابن مسعود : « والذى بعث محمدا بالحق ، لقد رأيت الذين سماهم النبى عليه الصلاة والسلام .. صرعى يوم بدر » .

كانت حياة النبى مع أسرته حياة سعيدة ..

فهو سعيد بزوجته ..

سعيد بأولاده .

راضيا بقضاء الله عندما فقد (عبد الله) .. كما فقد من قبله القاسم ..

وكم ضحت هذه السيدة العظيمة .. انها وهى السيدة التى تملك المال والجاه .. تعيش الحصار الظالم الذى فرضته مكة على بنى هاشم لمدة سنوات ثلاث ..

وعندما شعرت مكة (بعقدة الذنب) إزاء ما فعلته بالنبى وعشيرته ..

وتحللت من « وثيقتها الظالمة » التى بمقتضاها حاصرت مكة بنى هاشم فى شعب أبى طالب لا تبيع لهم ، ولا تشترى منهم .. بعد كل هذا الكفاح الطويل شعرت أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها بالتعب .. وسرعان ما انتقلت إلى أكرم جوار ..

وقد حزن النبى حزنا شديدا لفراقها .. وقد سمى هذا العام الذى فقد فيه خديجة ، وعمه أبا طالب عام الحزن ..

وظلت حياة خديجة عزيزة إلى نفسه ، وظلت ذكراها عالقة فى ذاكرته طوال حياته .. يهش لأصدقائها عندما يلقاهن ، ويقابلهن بترحاب شديد ، لأنهن كن يذكرنه بخديجة العظيمة ..

وكان حب النبى العظيم لها عظيما لدرجة أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها كانت تغار منها حتى بعد أن انتقلت خديجة إلى جوار ربها ..

قالت للرسول يوما عندما جاء ذكر خديجة :

— « هل كانت الا عجوزا بدّلك الله خيرا منها ؟ »

فقال لها الرسول مغضبا :

— « لا والله .. ما أبدلنى الله خيرا منها .. آمنت بى إذ كفر الناس .

وصدقتنى إذ كذبنى الناس .

وواستنى بمالها اذ حرمنى الناس . ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء » .

.. هذه هى لمحة من حياة هذه السيدة العظيمة التى تركت كل هذا الأثر فى قلب أعظم من عرفته الحياة .. محمد عليه الصلاة والسلام ..

عائشة بنت أبي بكر

* « حبك يا عائشة فى قلبى كالعروة الوثقى »

بعد أن رحلت خديجة بنت خويلد إلى جوار ربها . . والتى قضى معها النبى صلى الله عليه وسلم أكثر من ربع قرن . . وكان قد تجاوز مرحلة الشباب . . وكانت ابنته فاطمة الزهراء صغيرة فى حاجة إلى رعاية من يقوم مقام الأم فعرضت عليه (خوله بنت حكيم) أن يتزوج « سودة بنت زمعة » التى مات عنها زوجها (السكران بن عمر العامرى) عقب عودته مع سودة من هجرته إلى الحبشة . وكانت امرأة مسنة . . خشيت اضطهاد مكة لها . . وخافت على دينها من أن يفتنها فيه أهل مكة فاختارها النبى ﷺ لرعاية ابنته فاطمة . . وليس هذا الاختيار بسبب رغبة فى مال أو جمال فلم تكن تملك شيئا من ذلك . . وقد عبرت هى بنفسها عن ذلك للرسول فقالت :

— والله ما بى على الأزواج من حرص ، ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجا لك !

لقد تزوج النبى ﷺ من عائشة رضى الله عنها بعد رحيل أم المؤمنين خديجة بعدة سنوات . . وكانت عائشة ما زالت صغيرة . . وكانت جميلة . . وذكية . . وتعرف القراءة والكتابة . . وتحفظ الكثير من الشعر . . تربت فى بيت أبى بكر الصديق . . وأخذت من والدها العظيم ذكاءه ورقته . . وجميل شمائله .

ويقول الرواة إن التى اقترحت خطبتها للرسول خولة بنت حكيم . . فى نفس الوقت الذى عرضت عليه الزواج من سودة بنت زمعة . . وهنا نتوقف عند سن عائشة عندما تزوجت الرسول ﷺ .

قالوا انها كانت فى العاشرة من عمرها .

ولكن هناك من الدارسين من يرى غير ذلك . . فالعقاد يقول :

— « ولا يعرف على التحقيق فى أى سنة ولدت عائشة رضى الله

عنها .. ولكن أقرب الأقوال إلى الصدق وأحراها بالقبول أنها ولدت فى السنة الحادية عشرة أو الثانية عشرة قبل الهجرة .. فتكون قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها أو قاربتها . يوم بنى بها الرسول عليه السلام » .

ويقول عنها العقاد أيضا :

— وجملة ما يفهم من وصفها على التحقيق انها كانت بيضاء ، فكان عليه السلام يلقبها بالحميراء .. - لاختلاط بياضها بحمرة وكانت أقرب إلى الطول لانها كانت تعيب القصر ، كما مر فى كلامها عن السيدة صفية ، وكانت فى صباها نحيلة أو أقرب إلى النحول ، حتى كان الذين يحملون هودجا خاليا يحسبونها فيه .. قالت فى حديث مشهور :

— « ... وأقبل إلى رهط الذين يرحلون لى - أى يحملون الرحل على البعير - فحملوا هودجى وهم يحسبون أنى فيه ، وكانت النساء إذ ذاك خفافا لم يهبلهن ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستكثر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه ، إذ كنت مع ذلك جارية حديثة السن » .

ثم مالت بعد سنوات إلى شيء من السمنة كما جاء فى كلامها فى حديث آخر :

— « ... خرجت مع النبى ﷺ فى بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم » فقال ﷺ .. تقدموا .. فتقدموا .. ثم قال : تعالى حتى أسابقك فسبقته فسكت .. حتى إذا حملت اللحم وكنا فى سفرة أخرى قال ﷺ للناس : تقدموا .. فتقدموا .. ثم قال تعالى حتى أسابقك فسبقنى فجعل ﷺ يضحك ويقول : هذه بتلك » ..

كانت عائشة أقرب الناس إلى قلب رسول الله ﷺ وقد عبر عن ذلك بقوله : « حبك يا عائشة فى قلبى كالعروة الوثقى » .

وقال أيضا يصف عاطفته القوية نحو عائشة :

— « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك »

وكانت السيدة عائشة تعرف مكانتها عند رسول الله ﷺ ، التى لا يتفوق عليها إلا حبه للراحلة العظيمة خديجة بنت خويلد ، حتى أن عائشة كانت تغار منها رغم وفاتها . .

وكانت عائشة تعدد مزايا نفسها فقالت بعد أن رحل النبى ﷺ إلى جواربه :

— «فضلت على نساء النبى ﷺ بعشر . . لم ينكح بكرا قط غيرى . . ولا امرأة أبواها مهاجران غيرى ، وأنزل الله براءتى من السماء ، وجاء جبريل بصورتى من السماء فى حريرة ، وكنت أغتسل أنا وهو فى إناء واحد ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيرى ، وكان يصلى وأنا معترضة بين يديه دون غيرى ، وكان ينزل عليه الوحى وهو معى ولم ينزل وهو مع غيرى . وقبض وهو بين سحرى ونحوى فى الليلة التى كان يدور على فيها ودفن فى بيتى » .

* * *

ولا شك ان هذه المنزلة بلغتها بكل ما تملك من مواهب الجمال . . والذكاء . . والحس المرهف . .

كان النبى ﷺ يخصف نعله يوما وهى تغزل ورأت العرق على وجهه ، فتصورت ان حبات العرق على جبينه ـ لحبها له تتألق نورا . . فاعترتها الدهشة .

قال لها الرسول ﷺ : مالك بهتِّ ؟

قالت : يا رسول الله نظرت إلى وجهك فجعل عرقك يتولد نورا . . فلو رآك أبو كبير الهذلى لعلم أنك أحق بشعره . .

قال : وما يقول يا عائشة أبو كبير الهزلى ؟

قالت : يقول :

ومبرأ من كل غير حيضة
وفساد مرضعة وداء مقبل
وإذا نظرت إلى أسرة وجهه
برقت كبرق العارض المتهلل

فقام إليها الرسول ﷺ وقبلها بين عينيها .وقال :

— بارك الله فيك يا عائشة .

وقد زاد من حبه لها صداقته الحميمة بأبيها (أبو بكر الصديق)

.. وقد سأله يوما عمرو بن العاص :

— يا رسول الله من أحب الناس إليك ؟

— عائشة

— إنما أقول من الرجال ؟

— أبوها .

ولا يختلف أحد على فصاحتها وقدرتها على البيان .. من أجل هذا قال عنها الرسول الكريم :

— « خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء .

ويستدل الرواة على قدرتها البلاغية الفائقة من خطبها في مختلف المناسبات .. فهي التي وقفت على قبر أبيها (الصديق ترثيه) :

— « نضر الله وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنت للدنيا مذلا بإعراضك عنها ، وللآخرة معزا باقبالك عليها ، ولئن كان أجل الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزؤك ، وأعظم المصائب بعده فقدك ، ان كتاب الله ليعد بالعزاء عنك حسن العوض منك ، فأنا أنتجز من الله موعوده فيك بالصبر عليك ، وأستعيضه منك بالدعاء لك فإنا لله وإنا إليه راجعون » وعليك السلام ورحمة الله توديع غير قالية لحياتك ولا زارية

على القضاء فيك ».

كما يروى الرواة أنها تمثلت بقول الشاعر، عندما رأت والدها العظيم يجود بأنفاسه فقالت :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى
إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فقال لها والدها العظيم وهو يذكرها بأن تستدل بما هو أفضل بكتاب العزيز الحميد :

قال لها وقد استمع إلى كلماتها الحزينة :

— لا تقولى ذلك يا عائشة ، ولكن قولى :

« وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ».

* * *

ولكن هذه السيدة الفاضلة التى كانت تغار على رسول الله ﷺ تحدث لها حادثة تركت فى حياتها بصمات عميقة .. بل ان هذه الحادثة تركت على مجرى التاريخ الإسلامى نفسه بصمات عميقة يوم تصدت فيما بعد للإمام على بن أبى طالب فى معركة « الجمل » لانها لم تنس له قوله عقب هذه الحادثة :

تزوج يا رسول الله .. فالنساء كثير

انها حادثة الافك ..

وهذه الحادثة كما يرويها الرواة ملخصها .. انها خرجت مع النبى ﷺ فى إحدى غزواته (غزوة بنى المصطلق) .. وبعد أن انتهت هذه المعركة ، وأخذ الجيش طريقه إلى المدينة .. كانت عائشة قد ذهبت بعيدا لقضاء حاجتها .. وقد انفرط عقدها .. فأخذت تجمعه .. وعندما تم لها ذلك نظرت فإذا الجيش قد أخذ طريقه نحو المدينة .. وكان الذين يحملون هودجها يظنونها فيه ، وأخذت تتلفت يمنة ويسرة

وفى كل الاتجاهات وهى تحاول العودة إلى المدينة .. ثم أخذها التعب فنامت .. وكان هناك الشاب صفوان بن المعطل الذى كان يبحث فى أرض المعركة عمن تخلف من المقاتلين ، وشاهد السيدة عائشة وعرفها .. فأركبها على راحلته .. وأخذ يقودها حتى أرجعها إلى بيتها .

قصة عادية ..

ولكن المنافقين أخذ يصور لهم خيالهم المريض أشياء أبعد ما تكون عن هذه السيدة الفاضلة التى تربت فى بيت طهر .. وهو بيت الصديق ، وعاشت فى أطهر مكان .. وهو بيت محمد ﷺ .. فقد اتهموها فى شرفها !

وعلم الرسول ﷺ بهذه الشائعات فحزن .. فهو يعلم ان عائشة فاضلة .. ويعلم ان صفوان شاب مستقيم .

ولكن المنافقين زادوا فى غيهم .. حتى أن الرسول ﷺ سأل أصحابه وزوجاته فيما أشيع بين الناس .

فقال عمر بن الخطاب : « لقد زوجها لك ربك يا رسول الله وهو لا يخدع نبيه » .

وقال على : « يارسول الله لا تحزن . لم يضيق الله عليك والنساء غيرها كثير » .

وقالت جاريتها « بريرة » .. وهى تنفى التهمة تماما عن عائشة :

— لا والذى بعثك بالحق ، ما رأيت شيئا آخذه عليها سوى انها جارية حديثة السن ، تنام عن العجين فتأتى الدواجن فتأكله .

وعلمت عائشة بما يدور .. فبكت .. وزاد شحوبها ونحولها .. وذهبت إلى بيت أبيها ..

أيام عصيبة للغاية .. عاشتها أم المؤمنين .. وهى لا تتصور

أو تتخيل أن يتهمها إنسان فى أعز ما تملك .. وهى ابنة الصديق ، وزوج رسول الله ﷺ ..

وزاد من عذابها قول الرسول ﷺ لها عندما جاء إلى بيت أبيها :

— « يا عائشة لقد بلغنى عنك ما بلغنى .. فإن كنت بريئة فسيبرئك الله .. وإن كنت قد أخطأت فاستغفرى الله ، وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه تاب الله عليه » .

ونظرت إلى أمها وأبيها لعلهما يدافعان عنها .. ولكنهما لاذا بالصمت فقالت :

— لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس وثبت فى أنفسكم وصدقتم به .. ولئن قلت لكم انى بريئة ما صدقتمونى ، وإن اعترفت لكم ـ والله يعلم انى لبريئة ـ صدقتم قولى .

﴿ فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون ﴾ .

وينزل من السماء قرآن يبرىء أم المؤمنين :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة النور)

ومرت هذه الأيام العصيبة فى حياة صاحب الرسالة الخالدة ونزل التشريع الإلهى يعاقب من يقذف فى أعراض الناس بالباطل بالجلد ثمانين جلدة .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً

وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

(سورة النور)

وتبلغ الرحمة أقصى مداها برسول الله .

فالرجل الذى أطلق هذه الشائعة هو زعيم المنافقين « ابن أُبىٍّ » وكان له ابن صالح قريب من قلب رسول الله ﷺ (عبد الله) .. وقد علم ما فعله أبوه والمنافقون بسمعة رسول الله ﷺ .. فأراد أن يقتل أباه .. واستأذن الرسول فى ذلك وقال للرسول تلك الكلمات الواثقة :

— فوالله ما علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس .. فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار » .

أراد عبد الله أن يمحو عار أبيه بنفسه . ولكن أعظم من عرفته الأرض رحمة ورأفة قال لهذا الابن الصالح :

— « بل ترفق به وتحسن صحبته ما بقى معنا » .

ومرت هذه المحنة التى استغرقت خمسين يوما .. وبقيت آثارها فيما بعد من أحداث .. فلم تنس السيدة عائشة هذا أبدا طوال حياتها .

ظلت بجانب الرسول ﷺ وهو يحقق فى كل يوم انتصار جديدا للدين الجديد .. رأته فى غزواته .. ورأته وهو يستقبل الناس فى عام الوفود وهم يتدفقون إلى المدينة لرؤية الرسول .. وفهم تعاليم الإسلام والدخول فيه .

ورأته كيف يعظ الناس فى أيامه الأخيرة .. وكيف أصبح من كثرة معرفته بالله .. أتقى الناس .. وأنقى الناس .. وأكثر زهدا فى

الحياة .. رأت هذا المقاتل الجسور ضد الباطل . وهو يذوب رقة وخشوعا عندما يقف بين يدى العزيز الكريم ..

ورأت العظمة مجسدة فى حديثه العظيم .. وحيائه العظيم .. وهى التى روت عنه قوله :

— « كان عليه الصلاة والسلام إذا بلغه عن أحد ما يكره لم يقل ما بال فلان يقول كذا وكذا أو يفعل كذا وكذا بل يقول : ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا » .

فهو لا يسمى فاعل الشىء حياء منه ، وتذكر له وفاءه العظيم ، حتى لمن كانت تغار منها .. من خديجة وهى التى قالت :

— ما غرت من أحد من نساء النبى ﷺ ما غرت من خديجة وما رأيتها . ولكن النبى ﷺ كان يكثر من ذكرها .. وربما ذبح الشاة ، ثم يقطعها أعضاء ، ثم يبعثها فى صدائق خديجة .. فربما قلت له : كأنه لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة .

فيقول : إنها كانت وكانت .. وكان لى منها ولد » .

رأت الكثير وروت الكثير عن الرسول ﷺ .. وعندما مرض أعظم رسل الله .. قضى أيام مرضه فى حجرة عائشة .. وانتقل إلى جوار ربه فى هذه الحجرة .. ودفن بها .. وقد عبرت السيدة الجليلة عن اللحظات التى فارق فيها خير رسل الله الدنيا بعد أن أضاءها بكل ما هو عظيم وجليل :

— « .. وجدت رسول الله ﷺ يثقل فى حجرى ، فذهبت أنظر فى وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة » .

قلت : خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق .

وقبض بين سحرى ونحرى وفى دولتى ولم أظلم فيه أحدا .. فمن سفهى وحداثة سنى انه ﷺ قبض وهو فى حجرى .. ثم وضعت رأسه

على وسادة وقمت أندب مع النساء وأضرب وجهي » .

وظلت تروى أحاديث الرسول بعد ذلك . . وتعلم النساء الفقه إلى أن لقيت ربها وهي في السبعين من عمرها ودفنت في البقيع سنة ٥٨ من الهجرة .

حفصة بنت عمر

كانت حفصة بنت عمر متزوجة من خنيس بن حذافة السهمى الذى كان محبا للرسول عليه الصلاة والسلام ، وجاهد معه فى غزوة بدر حيث انتصر المسلمون على قلتهم على جيش مكة الجرار ولكنه ذهب شهيدا .

كانت حفصة ليست بذات جمال ، ولكنها كانت فى ربيع عمرها فهى لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها .

وعندما رآها والدها تفقد زوجها فى هذه السن الصغيرة قرر أن يزوجها أحد أصدقائه من صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكان يعرف أن عثمان رضى الله عنه لم يذهب مع المسلمين فى معركة بدر لأن زوجته رقية كانت تعانى من المرض فكان يسهر على رعايتها .. وعندما انتهت المعركة وعاد المسلمون إلى المدينة كانت « رقية » قد اختارها ربها الكريم إلى جواره .

خطر على بال عمر أن يذهب إلى عثمان حتى يزوجه ابنته حفصة وعندما أخبره برغبته تلك بعد أن عزاه فى فقد زوجته لاذ عثمان بن عفان بالصمت . فخرج عمر متجها نحو صديقه أبى بكر وعرض عليه الزواج من ابنته .. ولكن الصديق هو الآخر لاذ بالصمت !

يومها حزن عمر فى قرارة نفسه ..

حزن لأن أصدقاءه أعرضوا عن طلبه بأن يتزوج أحدهما ابنته .. وحزن على حزن ابنته التى فقدت زوجها .

وذهب إلى الرسول يشكو إليه ما فعل به الصديقان فقال له الرسول الكريم :

— « لعل الله يزوج حفصة ممن هو خير من عثمان ، ولعله يزوج عثمان من هى خير من حفصة » .

نزلت كلمات الرسول عليه الصلاة والسلام على قلبه بردا وسلاما ..

فمن هو خير من عثمان وأبي بكر إلا الرسول نفسه ، ومن هي خير من ابنته إلا أنه يريد أن يزوج ابنته الأخرى إلى عثمان بن عفان (أم كلثوم) ليصبح ذو النورين .. أيقن عمر قصد الرسول .

ويحكي عمر رضي الله عنه هذه القصة بقوله :

— « أتيت عثمان بن عفان ، فعرضت عليه حفصة قلت له : ان شئت أنكحتك حفصة ..

فقال عثمان : سأنظر في أمري .. فمكث ليالي ثم لقيني فقال :

— قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا .

ثم قال : فلقيت أبا بكر الصديق فقلت له : ان شئت زوجتك حفصة ، فصمت أبو بكر فلم يرجع إلى شيئا ، فكنت عليه أوجد مني على عثمان .

فمكثت ليالي ، ثم خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنكحتها إياه ، فلقيني أبو بكر فقال : لعلك وجدت على (غضبت) حين عرضت على حفصة فلم أرجع إليك شيئا فقلت : نعم يا أبا بكر .

فقال أبو بكر : انه لم يمنعني أن أرجع إليك شيئا بشأن حفصة حين ذكرتها لي ، إلا أني قد كنت علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها ، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ، ولو تركتها رسول الله لقبلتها .

وهكذا تزوجت حفصة من خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، وعندما انتقلت إلى بيت الرسول .. عرفت أن عائشة أثيرة إلى قلبه صلى الله عليه وسلم ..

وأنها كثيرا ما كانت تراجعه ، فحاولت أن تقلدها في سلوكها مع الرسول عليه الصلاة والسلام .. وعندما علم أبوها (عمر بن الخطاب) بذلك هاله هذا الأمر .. كيف تراجع ابنته الرسول .. وكيف تجرؤ على ذلك ؟

لقد قرر عمر معاقبة ابنته لجرأتها على الرسول ، ولم يشفع لها ما قالته عن عائشة التى تراجع الرسول .. وكيف كان الرسول يتقبل منها ذلك !

ولكن عمر بذكائه المفرط ، وفهمه للأمور ، وحزمه وشدته ، ما كان يقبل من ابنته أن تغضب الرسول .. وليس من حقها تقليد عائشة .. وقال لها :

— يا « بنية سمعت أنك تراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم فيظل يومه غضبان .. تعلمين والله أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله .

يا بنية ، لا يغرنك هذه التى أعجبها حسنها ، وحب رسول الله لها .. والله لقد علمت أن رسول الله يغير عليك ولولا أبوك لطلقك ! » .

وقد وعت حفصة الدرس جيدا .

وكان عمر الرسول حين تزوجها (٥٥ سنة) وكانت هى فى الثامنة عشرة من عمرها فى قول ، وفى الواحد والعشرين فى قول آخر .

وقد انتقلت إلى جوار ربها فى خلافة معاوية ودفنت بالبقيع .

أم المساكين

زينب بنت خزيمة

كانت سيدة متدينة . . كثيرة العطف على المساكين حتى أطلقوا عليها أم المساكين ، وكانت متزوجة من عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب . . وهو ابن عم الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكان عبيدة من الذين برزوا فى أول معركة (بدر) لمبارزة مشركى مكة . . فقد خرج مع عمه الحمزة ، وابن عمه على بن أبى طالب لمبارزة من يخرج اليهم للقتال . كان الكل يدرك أن هذه المعركة معركة فاصلة فى تاريخ الإسلام . . وكانوا يدركون أن هذه المعركة سوف تغير مسار الدعوة الإسلامية كلها . . حتى أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقف يدعو ربه قائلا :

— « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلها وخيلائها تحادك وتكذب رسولك . . اللهم فنصرك الذى وعدتنى . . اللهم أهلكهم فى هذه الغداة » .

وكانت قريش تتيه برجالها وفرسانها وكثرتهم وتستهين بعدد المسلمين . . فهم يفوقوهم عددا وعدة . . ونسوا أن المسلمين كانوا يملكون الإيمان الذى لا يزعزعه شك ، وكانوا يرون أن هذه المعركة معركة حياة أو موت . . وأن المسلم إذا استشهد فقد استحق الشهادة . ، وان عاش فقد جاهد فى سبيل دينه ، فكانوا يتحرقون إلى القتال ، والانتقام من مشركى مكة الذين طالما ساموهم الخسف والظلم فى مكة . . وقد برز من المشركين « عتبة بن ربيعة » وأخوه« شيبة » وولده الوليد .

فبرز لهم من صفوف المسلمين الحمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبيدة بن الحارث .

ودارت رحى القتال . . فقتل الحمزة شيبة . وقتل على الوليد . . بينما ظل الصراع عنيفا بين « عتبة » والحارث . . وجرح كل واحد منهما

الآخر ، وعندما أراد عتبة قتل الحارس أسرع أسد الله الحمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب فقضيا على عدو الله . .

وخرج الحارث من هذه المعركة جريحا . . ثم ما لبث أن أصبح شهيدا من شهداء هذه المعركة الفاصلة فى تاريخ الإسلام . . ونقطة التحول الكبرى فى حياة الدعوة الإسلامية .

وتقديرا لهذه السيدة تزوجها الرسول عليه الصلاة والسلام وأصدقها أثنتى عشرة أوقية ذهبا . . وكان هذا الزواج فى شهر رمضان بعد هجرة الرسول بواحد وثلاثين شهرا . . ولكنها لم تمكث فى بيت الرسول كثيرا . . فقد انتقلت إلى جوار ربها بعد ثمانية أشهر . . وقد صلى عليها الرسول علية الصلاة والسلام ، ودفنت فى البقيع وكانت فى الثلاثين من عمرها كما يقول بعض مؤرخى السيرة .

أم المؤمنين أم سلمة

أم سلمة هى هند بنت أبى أمية .

وأسم أبيها : سهيل بن زاد الركب .. وأطلق عليه زاد الركب لأنه كان انسانا كريما يتكفل بزاد من يسافر معه فى رحلة من الرحلات ، فقد كان يكفى جميع من معه الزاد .

وقد تزوجت عبد الله بن عبد الأسد المخزومى .. وكان من السابقين إلى الإسلام ، وعندما أخذت مكة تبطش بالذين يدينون بالإسلام ، هاجر مع زوجته هند إلى الحبشة ، ثم رجع إلى مكة بعد فترة من الزمن على أمل أن تكون قبضة مكة على المسلمين قد خفت حدتها ..

وبعد بيعة العقبة سمح الرسول عليه الصلاة والسلام لأصحابها بالهجرة إلى يثرب .. وهاجر بعض المسلمين والمسلمات سرا إليها ، وعندما علمت مكة بذلك قررت منع من يهاجر خوفا من اشتداد ساعد المسلمين فى يثرب .. وهذا ما يعرض أمنهم للخطر . وعندما حاولت أم سلمة وزوجها الهجرة إلى يثرب ، اعترض طريقهما أهل زوجها وأهلها ..

حاول أهل الزوج منعه ولكنه أصر على الهجرة وهاجر .. بينما استطاع أهلها أن يحولوا بينها وبين الهجرة .. وعندما علم أهل الزوج بذلك تنازعا أبنهما (سلمة) .. وأخذ كل منهما يشد ذراعه حتى انخلع ذراعه !

وهكذا أصبحت أم سلمة أسيرة عائلتها فى مكة .. وأصبح ابنها أسير عائلة أبيه !

وتاقت هى لزوجها المهاجر .. وأن تعيش فى بيته بعيدة عن صلف أهل الشرك فى مكة .. فكانت تخرج كل يوم تتلمس أخبار زوجها وابنها .. حتى رق لها قلب أحد أقاربها ، وأقنع أهلها أن يتركوها لتلحق بزوجها .. واقتنعوا وقررت الهجرة بعد أن أخذت ابنها الذى ردوه اليها .

كانت فرحة الأم عارمة وهى تأخذ وليدها على راحلتها ميممين وجوههم نحو يثرب ، غير آبهة بطول الطريق ، ولا متنظرة قافلة تسير معها يكون طريقها يثرب !

وعندما غادرت مكة شاهدها (عثمان بن طلحة) وكان لا يزال على الشرك وسألها عن وجهة نظرها ، فأخبرته أنها تريد اللحاق بزوجها . . وأدهشه أن تسافر وحدها . فأخذته الشهامة أن يقود بعيرها ، وأن يرافقها حتى تصل إلى يثرب . !

لم يرفع إليها عينه طوال الطريق ، وشهدت له أم سلمة بحيائه وشجاعته وإيثاره للخير . . وعندما لاحت له قباء تركها وعاد إلى مكة .

وفى المدينة اجتمع شمل الأسرة .

وفى هذا المجتمع الجديد شعرت بالأمن والأمان ، وسكينة النفس تحت ظلال الإسلام .

وتمضى الأيام . . ويحقق المسلمون انتصارا مذهلا فى « بدر » ثم تمضى الأيام ويحاول أهل مكة الانتقام لقتلاهم ، وكانت معركة « أحد » .

وفى هذه المعركة خرج زوجها مجاهدا فى سبيل الله ، وأصابه سهم كان سببا فى استشهاده بعد ذلك بشهور . وعندما حضرته الوفاة دعا لهاقائلا :

— اللهم ارزق أم سلمة بعدى خيرا منى . . لا يخذلها ولا يؤذيها .

وفكرت أم سلمة كثيرا فى هذا الدعاء .

من هذا الذى يكون خيرا من زوجها الذى هاجر الهجرتين ، ومات شهيدا . ومرت الأيام . . وبعد العدة خطبها أبو بكر فردته . . وخطبها عمر بن الخطاب فردته أيضا .

بعد ذلك أرسل لها الرسول علية الصلاة والسلام رسولا طالبا الزواج منها فقالت لمن بعثه الرسول :

— أخبر رسول الله ﷺ أني امرأة غيْرى ، وأنى مصبية (عندها صبية) ، وأنه ليس لى أحد من أوليائى مشاهدة ، وأنى عجوز قد كبرت سنى .

وبعث رسول الله ﷺ من يقول لها :

— « أما قولك أني مصبية فإن الله سيكفيك صبيانك ، وأما قولك إنك غيرى فسأدعو الله أن يذهب غيرتك ، أما الأولياء فليس أحد منهم شاهد ولا غائب إلا سيرضاى ، وأنا أكبر منك سنا » .

فقالت لولدها عمر :

— قم يا عمر فزوج رسول الله ﷺ . . وأصبحت أم سلمة أما من أمهات المؤمنين .

وكانت بها بقية من جمال ، حتى أن عائشة غارت منها وقالت :

— « لما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة حزنت حزنا شديدا لما ذكر لنا من جمالها ، فتلطفت لها حتى رأيتها وهى لا تعرفنى فرأيت أضعاف ما وصف لى من الحسن والجمال فرجعت من عندها تأكلنى الغيرة منها » .

وقلت لحفصة عما رأيت .

فقالت لى : ان هذا من الغيرة يا عائشة . . نظرت إليها وأنت تغارين منها .

قلت لها : فاذهبى أنت إليها .

فذهبت (حفصة) متخفية كما فعلت ورجعت تقول :

— انها جميلة ولكن ليس كما تقولين يا عائشة ، فإن الكبر يظهر عليها . لقد ذهب معظم شبابها مع الأيام وبقيت منه بقية لا تصبر على

الزمن طويلا » .

ففرجت عنى ما كانت تضيق به نفسى .

- فقلت أذهب إليها مرة أخرى لأتحقق من قول حفصة فرأيتها كما وصفتها فحمدت الله أنها لم تكن شابة تنازعنى حب رسول الله وحبه لى » .

ومن هذه الرواية يتضح مدى غيرة عائشة رضى الله عنها من أم سلمة . . على بقية من جمال جليل لم تأخذه الأيام .

وتمضى الأيام وتحدثنا كتب السيرة أن نساء النبى وقد علمن بما أفاء الله على رسوله والمسلمين من النعم والخيرات بعد جلاء اليهود عن المدينة فطمعن أن يعشن حياة مرفهة ، ويلبسن ملابس أجمل ، ويصبح لهن مثل النساء الأخريات من الذهب والفضة ، ويتركن حياة الزهد ، والتقشف التى يعيشها الرسول ، ولكن الرسول رفض مطالبهن ، وقرر اعتزالهن جميعا . . حتى شاع بين المسلمين أنه طلقهن .

وحزن أبو بكر الصديق . . وحزن عمر بن الخطاب . . عندما تناهى إلى سمعهما أن نساء النبى اعتزلهن رسول الله علية الصلاة والسلام فى « مشربة » وقام على خدمته خادمة رباح .

وتوجه عمر بن الخطاب إلى أم سلمة يسألها عما فعلته بالرسول وكانت تمت إليه بصلة القرابة . . ولكن أم سلمة استكرت على عمر أن يتدخل فى أمور بيت الرسول ، حتى لو كانت ابنته حفصة من أزواج الرسول .

قالت لعمر بن الخطاب :

— عجبا لك يا عمر . . مالك ولهذا وقد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين النبى وأزواجه » .

واعتذر لها عمر . .

وبقى حزينا لما حدث فى بيت النبوة .. وتوجه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعندما سمح له الرسول بالدخول ، هال عمر بن الخطاب حياة النبى علية الصلاة والسلام المتقشفة .. حتى أنه بكى عندما رأى أن الحجرة ليس بها إلا الحصير الذى أثر فى جنب الرسول .. وسأله الرسول عما يبكيه قال عمر : ما أراه بك يا رسول الله ، أنك أحب العباد الى الله ، وتعيش هكذا على حصيرة أثرت فى جنبك وتأكل الماء والشعير !

وقال له أعظم رسل السماء :

— يا بن الخطاب كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، لقد خيرت بين أن أكون نبيا ملكا مثل سليمان وداود عليهما السلام ، وبين أن أكون نبيا عبدا فاخترت أن أكون نبيا عبدا » .

وأخذ عمر يحدث الرسول حتى سُرّى عنه ، وعلم أن النبى يعتزل زوجاته لمطالبهن ، ورغبتهن فى زخرف الحياة الدنيا وأنه لم يطلقهن وسعد بن الخطاب .

وفى هذه الحادثة نزل قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الاحزاب)

وبعد انتهاء الشهر ، خير الرسول نساءه بين الحياة معه كما يعيش ، أو أن يسرحهن سراحا جميلا .. بدأ الرسول بعائشة قائلا :

— « يا عائشة أنى أريد أن أعرض عليك امرا ، أحب الا تعجلى فيه

حتى تستشيرى أبويك .. وتلا عليها ما نزل من القرآن الكريم ..

قالت عائشة رضى الله عنها : أفيك استشير أبوى يا رسول الله بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة » .

و .. فعلت كل أمهات المؤمنين ما فعلت عائشة .. ورضين أن يعشن فى كنف الرسول مؤثرات الله والدار الآخرة .

.. عاشت أم المؤمنين أم سلمة فى بيت النبوة كريمة معززة .. وروت أحاديث عنه .. وعندما وافاها الأجل المحتوم كانت قد جاوزت الثمانين من عمرها .. فقدماتت عام ٦١ هجرية ودفنت بالبقيع .

زينب بنت جحش

هى زينب بنت جحش بن رباب ، وأمها أميمة بنت عبدالمطلب .. فهى ابنة عمة رسول الله ﷺ .

وقد هاجرت زينب إلى المدينة مع أمها .. وكانت تتمتع بالجمال ..

وأراد النبى ﷺ أن يزوجها زيد بن حارثة .. الذى كان يتبناه الرسول .. وكان الابن المتبنى يرث مثل الابن الحقيقى ..

وعندما قضى الإسلام على نظام التبنى .. كان لابد أن يطلق على زيد اسم والده الحقيقى زيد بن حارثة بعد أن كان يعرف باسم زيد بن محمد .

لقد أراد النبى أن يزوج زيدا ، واختار له ابنة عمته زينب بنت جحش وعندما طلبها أبت أن تكون زوجة لرجل كان رقيقا وهى سليلة بنى هاشم .. وكان أخوها عبد الله بن جحش هو الآخر يرفض أن يزوج أخته لزيد فما زالت هناك بقية من التقاليد التى ظلت تعيش فى أعماقهم .

وغضب الرسول من تصرف زينب ورفضها من اختاره لها زوجا . ونزل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الاحزاب)

وتناهى إلى سمع زينب ما نزل على الرسول من قرآن يحذر الناس من مغبة عدم طاعة الرسول ، فأرسلت إليه بموافقتها على الزواج من زيد .. ولكنها لم تكن سعيدة بهذا الزواج ..

لم تنس زينب أنها سليلة بنى هاشم حتى ضاق بها زيد ذرعا ..

وكثيرا ما اشتكى من تصرفاتها معه إلى الرسول ، والرسول ينصحه بالصبر قائلا له :

— أمسك عليك زوجك واتق الله » .

وجاء الوحى يعلم الرسول أن (زينب) سوف تصبح زوجة له . .

وخشى الرسول من كلام الناس ، وأن يقولوا أن محمدا تزوج من زوجة من كان يتخذه ولدا .

ونزل قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة الاحزاب)

ويفسر هذه الآيات الإمام ابن كثير فيقول : يقول الله تعالى مخبرا نبيه ﷺ أنه قال لمولاه زيد بن حارثة رضى الله عنه ، وهو الذى أنعم الله عليه بالإسلام ومبايعة الرسول ﷺ وأنعمت عليه أى بالعتق من الرق . . وكان سيدا كبير الشأن ، جليل القدر حبيبا إلى النبى ﷺ يقال له الحب ، ويقال لابنه أسامة الحب ابن الحب . قالت عائشة رضى الله عنها ما بعثه رسول الله ﷺ فى سرية إلا أمره عليهم ، ولو عاش لاستخلفه .

ويروى ابن كثير حديثا لأسامة بن زيد . . ويوضح مكانة زيد إبن حارثة عند رسول الله . . يقول أسامة : كنت فى المسجد فأتانى العباس وعلى ابن أبى طالب رضى الله عنهما فقالا يا أسامة استأذن لنا

على رسول الله ﷺ . .

قال : فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقلت : على والعباس يستأذنان .

فقال ﷺ : أتدرى ما حاجتهما ؟

قلت : لا يا رسول الله .

قال عليه الصلاة والسلام : لكنى أدرى . .

قال : فأذن لهما .

قالا : يا رسول الله جئناك لتخبرنا أى أهلك أحب إليك ؟

قال صلى الله عليه وسلم : أحب أهلى إلى فاطمة بنت محمد .

قالا : يا رسول الله ما نسألك عن فاطمة .

قال صلى الله عليه وسلم : فأسامة بن زيد بن حارثة الذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه .

ويقول ابن كثير : وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية رضى الله عنها ، وأمها أميمة بنت عبد المطلب وأصدقها عشرة دنانير وستين درهما وخمارا وملحفة ودرعا وخمسين مدا من طعام وعشرة أمداد من تمر قاله (مقاتل بن حيان) فمكثت عنده قريبا من سنة أو فوقها ثم وقع بينهما فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ . . فجعل رسول الله ﷺ يقول له : « أمسك عليك زوجك واتق الله » .

قال تعالى : ﴿ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ .

ويروى ابن كثير تفسيرا للحسن بن على من بين ما أورد من روايات يقول فيه الحسن : ان الله أعلم ونبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها فلما آتاه زيد رضى الله عنه ليشكوها إليه قال : (اتق الله وأمسك عليك زوجك) .

قال تعالى قد خبرتك أنى مزوجكها وتخفى فى نفسك ما الله مبديه . . وهكذا روى عن السدى أنه قال نحو ذلك ، ويروى ابن كثير حديثا عن عائشة رضى الله عنها تقول فيه : (لو كتم محمد ﷺ شيئا مما أوحى إليه من كتاب الله تعالى لكتم) (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) وقوله تعالى : (﴿ ولما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ﴾ والوطر هو الحاجة والأرب . . أى لما فرغ منها وفارقها زوجناكها ، وكان الذى ولى تزويجها هو الله عز وجل . . بمعنى أنه أحق أن يدخل عليها بلا ولى ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر .

وكانت زينب تفخر على نساء النبى فتقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سماوات ـ ويورد ابن كثير كيف تفاخرت زينب وعائشة .

فقالت زينب : أنا الذى نزل تزويجى من السماء .

وقالت عائشة : أنا الذى نزل عذرى من السماء .

وكانت زينب تقول للنبى ﷺ :

ـــ « انى لأولى عليك بثلاث : ما من نسائك امرأة تدلى بهن : ان جدى وجدك واحد ، وانى أنكحنيك الله عز وجل من السماء وأن السفير جبريل عليه السلام . .

وقوله تعالى : ﴿ لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾ يفسر ذلك الإمام ابن كثير : أى اننا أبحنا لك تزويجها وفعلنا ذلك لئلا يبقى حرج على المؤمنين فى تزويج مطلقات الأدعياء . وذلك أن رسول الله ﷺ قبل النبوة تبنى زيد بن حارثة فكان يقال زيد بن محمد ، فلما قطع الله تعالى هذا النسب بقوله تعالى : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أدعوهم لآبائهم هو

أقسط عند الله ﴾ ثم زاد ذلك بيانا وتأكيدا بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش رضى الله عنها لما طلقها زيد بن حارثة رضى الله عنه ، ولهذا قال تعالى فى سورة التحريم ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ ليحترز من الابن الدعى فإن ذلك كان كثيرا فيهم .

وقوله تعالى : ﴿ وكان أمر الله مفعولا ﴾ . . أى وكان هذا الأمر الذى وقع قد قدره الله تعالى وحتمه وهو كائن لا محالة ، كانت زينب رضى الله عنها فى علم الله ستصير من أزواج النبى ﷺ .

وقد بلغ من غيرة أزواج النبى من زينب ، أنهم اتفقوا ذات مرة ، أن تقول أى واحدة يأتى عندها الرسول بعد خروجه من عند زينب أن تسأله عما أكل عندها لانها تشم رائحة غير طيبة ؟ .

وقالت له إحدى زوجاته ذلك أنها تشم رائحة المغافير ولكن رسول الله ﷺ قال لها انه شرب عسلا عند زينب .

فقالت له : لقد رعى نحله المغافير .

وقالت له زوجاته نفس الكلام ، فحرم العسل على نفسه . ولكن شاء الله سبحانه وتعالى أن يكشف لرسوله الأمر فنزل قوله تعالى :

— ﴿ يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم ﴾ .

وكانت زينب رضى الله عنها كثيرة العبادة . . تكثر من الصوم والصلاة ولأنها كانت تحسن دبغ الجلود فقد اتخذت من هذه الصفة وسيلة لصنع ما ينفع الناس منها . . . وتبيعها وتتصدق بثمنها على الفقراء والمحتاجين .

وقالت عنها أم المؤمنين عائشة : كانت زينب بنت جحش تسامينى فى المنزلة عند رسول الله ، وما رأيت امرأة قط خيرا فى الدين من زينب

وأتقى لله ، وأصدق حديثا ، وأوصل للرحم والقرابة ، وأعظم صدقة وأشد بذلا لنفسها فى العمل الذى تتصدق به ، وتتقرب به إلى الله عز وجل .

وقد سألت إحدى نساء النبى الرسول ﷺ :

— أينا أسرع لحوقا ؟

رد خاتم الأنبياء والمرسلين :

— أطولكن باعا أو يدا .

وكانت أول نسائه لحوقا به ﷺ زينب بنت جحش فقد انتقلت إلى رحاب ربها فى عهد عمر بن الخطاب الذى صلى عليها ودفنت فى البقيع وكان ذلك عام ٢٠ هجرية وكان عمرها ثلاثة وخمسين عاما .

جويرية بنت الحارث

قالت عائشة رضى الله عنها عن زواج النبى بجويرية بنت الحارث : لم يكن زواج امرأة أيمن على قومها من زواج جويرية .. فقد أسلم بإسلامها مائتا بيت من بيوت العرب وكان زواجها خيرا وبرا على قومها » .

ولهذا الزواج قصة :

فقد علم الرسول ﷺ .. وكان ذلك فى شهر شعبان فى السنة الخامسة من الهجرة ان الحارث بن أبى حراز يريد غزو مدينة رسول الله .. وقد كان هذا الرجل وهو سيد قومه بنى المصطلق من الذين ساعدوا مكة عندما أرادت أن تنتقم لموتاها يوم بدر فى معركة أحد ..

ولم ينتظر الرسول حتى يداهم هذا الرجل وقومه المدينة فقرر أن يغزوه فى عقر داره ..

وعندما التقى الرسول بهذا الرجل ومعه قومه عند مكان يسمى (المريسيع) .. طلب منهم الرسول إعلان إسلامهم فرفضوا ولم يكن هناك مفر من القتال ..

وواجه الرسول الحارث ورجاله من خزاعة ... ولكنهم لم يصمدوا إلا قليلا .. ثم سرعان ما حاقت بهم الهزيمة ، ففر منهم من فر ، ووقع الباقى فى الأسر ، وكان من بين الأسرى ابنة زعيمهم جويرية بنت الحارث .. وكانت جويرية هذه متزوجة من سافع بن صفوان الذى قتل فى هذه المعركة .

وجدت جويرية نفسها أسيرة .. وهى ابنة سيد خزاعة فقد وقعت فى سهم ثابت بن قيس .. وهالها أن تصبح جارية وهى التى عاشت حياتها ترفل فى ثياب العز والجاه ، فعرضت على ثابت أن يفك أسرها نظير مبلغ من المال ، ووافق الرجل على أن يعتقها على أن تدفع له تسع

أواق من الذهب .

ولكن أين لها بالمال وهى أسيرة !

توجهت إلى الرسول ﷺ تحكى له قصتها مع الأسر وتطلب منه أن يتدخل ليخرجها من ذل الأسر ، وأن يدفع لها ما تعاهدت عليه مع ثابت قالت للرسول كما تروى عائشة ، وكانت مع الرسول فى هذه الغزوة :

— « .... فبينما النبى عندى إذ دخلت عليه جويرية تسأله فى كتابها ، فوالله ، ما أن رأيتها حتى كرهت دخولها على رسول الله وعرفت انه سيرى منها مثل الذى رأيت .

فقالت : يا رسول الله ، أنا جويرية بنت الحارث ، سيد قومه ، وقد أصابنى من الأسر ما قد علمت ، فوقعت فى سهم ثابت بن قيس ، فكاتبنى على تسع أواق فأعنى فى فكاكى .

فقال لها رسول الله ﷺ :

— أو خير من ذلك ؟

فقالت : ما هو ؟

فقال : « أؤدى عنك كتابتك وأتزوجك .

قالت : نعم يا رسول الله .

فقال ﷺ : قد فعلت .

ولما علم الناس بالخبر أطلقوا أسراهم من بنى المصطلق إكراما لأصهار رسول الله ﷺ .

وهكذا كان زواج جويرية خيرا وبركة على قومها الذين أحسوا بعظمة الرسول وإحسانه إليهم .. فدخلوا الإسلام طواعية .. والعجيب أن نساء النبى كانوا يفخرون عليها باعتبارها جارية .. وقعت فى الأسر وأعتقها الرسول ! وعندما شكت إلى الرسول ما يفعلنه فيها قال لها :

— ألم أعظم صداقك .. ألم أعتق أربعين من قومك ..

والرسول يعنى أن ما تقوله عنها ضرائرها لا يمت للحقيقة بصلة فهو كلام ضرائر .

وكانت هذه السيدة الفاضلة كثيرة العبادة .. كثيرة الخشية من الله وقد توفيت فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ودفنت فى البقيع .

صفية بنت حيى بن أخطب

كان اليهود أشد الناس كراهية للإسلام ونبى الإسلام ، فقد كان أملهم أن يكون النبى الخاتم منهم ، وعندما وجدوا أن الرسالة الخالدة يحمل لواءها النبى العربى امتلأت قلوبهم غلا للدعوة وصاحب الدعوة .

وعندما هاجر الرسول إلى المدينة وجدوا أن هذه الهجرة ستمكن للإسلام من أن يثبت أقدامه فى شبه الجزيرة العربية ، وستكون المدينة قاعدة انطلاق وانتشار فى كل مكان فى العالم .

وقد تصور يهود خيبر عندما عاد النبى من صلح الحديبية دون دخول مكة أن ذلك ضعفا فى المسلمين ، وسمع الرسول أنهم يخططون لقتاله ، فقرر الرسول ﷺ الذهاب لقتالهم ، وتوجه النبى بجيشه نحو خيبر .. وعندما أشرف عليها دعا الرسول ربه قائلا :

— « اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، فانا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها .. أقدموا باسم الله » .

وفى صباح اليوم التالى حاصر المسلمون اليهود تأهبا لقتالهم .. ثم دار القتال بين المسلمين وبين اليهود .. وكان القتال عنيفا .. حتى فتحت خيبر ، واستسلمت للمسلمين ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة .

وكان من بين الأسرى صفية بنت زعيم اليهود حيى بن أخطب الذى قتل فى المعركة كما قتل زوجها وأخوها .

وكان من الطبيعى أن تحزن صفية لما أصاب أهلها وما حل بهم من هوان .

كما كان من الطبيعى أن تجد فى صدرها ما يوغرها على رسول الإسلام وكان والدها واحدا من أهم أحبار اليهود وقادتهم .. وكان شديد

الكره للإسلام ونبى الإسلام .. وكانت صفية تعلم ذلك تماما .. تعلم أن والدها وعشيرتها يكرهون الدين الجديد .. ويكرهون ما يدعو إليه ..

كانت صفية رائعة الجمال .. فى ربيع عمرها .. فقد كانت فى السابعة عشرة من عمرها .. انها تفتح عينيها بعد أن وقعت فى الأسر .. وقتل أعز الناس عندها .. الأب والأخ والزوج ترى أن مستقبلها غامض .. هل تعيش ملك يمين إنسان لا يعرف قدرها ؟ .. ولكنها عرفت أن مستقبلها أصبح فى يد محمد .. هذا الذى كان يمقته أهلها .. وقد وجدت نفسها برفقة أم سليم .. هذه السيدة الفاضلة التى تنم قسمات وجهها وجمالها ووجودها فى ميدان القتال على أنها من معدن صقله الإسلام .. انها أم أنس بن مالك خادم الرسول ، والذى أمرها الرسول برعاية صفية .

وقد حدث أن قامت زينب بنت الحارث زوجة سلام بن مشكم بإهداء الرسول شاة مشوية بعد أن سممتها .. فقد أرادت أن تقتل الرسول ، وقد أكثرت من وضع السم فى الذراع بعد أن عرفت حب الرسول له .. وكان مع الرسول بشر بن البراء .. وعندما أكل الرسول من الطعام لم يستسغه وقال :

— ان هذا العظم يخبرنى بأنه مسموم .. !

ولفظ الطعام .. بينما أكل بشر .. فمات بشر .. وأحضر الرسول هذه المرأة التى اعترفت بفعلتها معللة ذلك بقولها :

— « بلغنى من قومى ما لا يخفى عليك فقلت ان كنت ملكا استرحت منه ، وان كنت نبيا ستخبر » .. وقد اقتص منها بعد أن مات بشر .

وقد أعتق النبى ﷺ صفية ، وطلبها للزواج فوافقت وقد أخذ النبى يحدثها فى طريق العودة إلى المدينة عما فعله به اليهود .. وعن

مؤامراتهم التى لا تنتهى .. وموقفهم العدائى من الإسلام ونبى الإسلام .. ورق قلبها للرسول .. ودخل الإيمان قلبها .. فأعلنت إسلامها .

وقد رفضت صفية أن يعرس بها الرسول بعد أن سارعت عدة أميال من خيبر .. وعندما وصل مكان يسمى (الفهباء) .. دخل بها .

ولاحظ النبى ﷺ أن على وجهها أعلا عينيها أثر لطمة تركت آثارها ..

وعندما استفسر عنها الرسول قالت له :

— رأت فى المنام قمرا أقبل من يثرب حتى وقع فى حجرى ، فذكرت ذلك لكنانة زوجى فقال : أتحبين أن تكونى زوجة لهذا الملك الذى يأتى من يثرب (وضرب وجهى) وكان عندما أعرس النبى بزوجته ان أحد الصحابة (أبو أيوب الأنصارى) يحرس النبى ﷺ ، فلم يغمض له جفن فى تلك الليلة خوفا على رسول الله من أن تغدر به صفية ثأرا مما حدث لقومها .

وعندما سأله الرسول عما فعل ، قال انه بات يحرسه خوفا عليه من أن يصيبه مكروه فدعا له الرسول :

— « اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى » ..

وأولم الرسول لأصحابه .. وأصبحت صفية أما من أمهات المؤمنين .

وعندما عاد الرسول إلى المدينة كان على صفية أن تعيش فى بيت النبوة .. وعرفت أثناء اختلاطها بأزواج النبى أن هناك حزبا تتزعمه عائشة وحفصة ، وحزبا آخر من بقية أمهات المؤمنين وتتعاطف معه فاطمة الزهراء وآثرت صفية أن تكون قريبة من الجميع .. ولكن عائشة كانت شديدة الغيرة .. فصفية جميلة فى ربيع عمرها .. وإذا كانت

تغار من خديجة التى انتقلت إلى جوار ربها .. فكيف بها وهى ترى أمامها شابة بالغة الجمال ..

وكان النبى يعرف هذه الغيرة فيها حتى أنه آثر قبل أن يذهب بها إلى بيته أن ينزلها فى بيت حارثة بن النعمان .. ولكن عائشة صممت أن تراها .. فتنقبت حتى رأتها ، ولكن الرسول عرفها .. فمسك بثوبها وسألها :

— كيف رأيت يا شقيراء ؟

وردت عائشة والغيرة بادية عليها .

— رأيت يهودية !

فقال لها الرسول : انها أسلمت وحسن إسلامها .

وعاشت صفية فى بيت الرسول ﷺ . وقد أثرت فيها شخصية الرسول المتكاملة ، وحسن رعايته لها .. وحبه الذى يفيض على نسائه جميعا .. ولكن صفية وقد أحبت الرسول حبا جما .. وأنساها الإسلام بمبادئه وتعاليمه وسماحته ما كانت عليه قبل أن تدخل فيه ..

ولكنها مع ذلك لم تنج من مضايقات عائشة وحفصة بحكم الغيرة .. فكانا يعيرانها بأنها يهودية .. وعندما كانت تشتكى للرسول كان يقول لها :

— قولى لهن كيف تكن خيرا منى وأبى هارون ، وعمى موسى عليهما السلام وزوجى محمد .

وتحكى السيرة أن النبى عندما مرض مرضه الذى توفى فيه .. كان يتألم ، وحوله أمهات المؤمنين ، وقالت له صفية : أما والله يا نبى الله لوددت أن الذى بك بى .

وأبصر الرسول زوجاته وهن يغمزنها فقال لهن :

— أكففن عن هذا ، والله انها لصادقة .

وانتقل الرسول إلى أكرم جوار . . وظلت صفية مثال المسلمة المحافظة على دينها وسنة الرسول الكريم وتوفيت فى خلافة معاوية بن أبى سفيان فى عام ٥٠ هجرية ، ودفنت بالبقيع . .

أم حبيبة .. بنت أبى سفيان

عاشت رملة بنت أبى سفيان فى بيت أبيها صاحب المكانة الرفيعة فى مكة .. وأحد كبار زعمائها .. وهى ترى احترام الناس لها لأنها سليلة هذا البيت العريق من بيوتات مكة .. فهى ابنة شيخ بنى أمية أبى سفيان ابن حرب .

وتزوجت رملة من عبيد الله بن جحش الأسدى (ابن عمة الرسول) ولم يكن النبى ﷺ قد نزل عليه الوحى .

وتمضى الأيام .. وتدوى فى مجتمع مكة الأخبار حول محمد وما ينادى به من دين جديد .. وانقلب المجتمع كله رأسا على عقب ، ولم يعد هناك حديث إلا عن هذه الدعوة الجديدة ، وما سوف يترتب عليها من تغيير الناس لمعتقدات الآباء والأجداد ، وما سوف تحدثه من تغيرات فى المجتمع .. ونظرة الناس بعضهم إلى بعض .. وسخرية من عبادة الناس لحجارة صماء لا تنفع ولا تضر .. وكان أن آمن بهذه الدعوة عبيد الله وآمنت معه زوجته رملة بنت أبى سفيان .

ولم تطق مكة أن ترى من أبنائها من يدخل الدين الجديد ، فزادت فى عذاب المستضعفين منهم ، وتربصت بأصحاب المكانة .. فقرر البعض الهجرة إلى الحبشة ، وكان منهم عبيد الله وزوجته رملة .

وفى هذه الأرض الغريبة كان إيمانها العميق بربها دافعا إلى أن تصبر وتتجه بكل كيانها إلى ربها أن يعينها فى حياتها على أرض غريبة ، وبين أناس تختلف تقاليدهم وعاداتهم عما ألفته فى مجتمع مكة .

وكان عزاؤها أن ملك الحبشة « النجاشى » متعاطف مع المسلمين .. أكرم وفادتهم .. وأنزلهم منزلا كريما ، لأنهم يؤمنون بالله كما يؤمن هو كمسيحى بالله .. وأنهم لا يعبدون حجارة .. وكان هو يأنف من إنسان يسجد لما صنعته يداه .

وكان من الممكن أن تعيش حياتها فى الغربة كما يعيش أى مهاجر

فى أرض غريبة ، محتسبة عند ربها هذه الغربة إلا أنها ذات يوم قامت من نومها فزعة ، فقد رأت زوجها فى صورة قبيحة !!

وتحيرت وهى تحاول تفسير هذه الرؤيا العجيبة ، ولكن سرعان ما فهمت تأويل رؤياها عندما عرفت أن زوجها ارتد عن الإسلام وتنصر . . واستهوته الخمر والحياة على هواه وكان يحز فى نفسها أنها أنجبت منه (حبيبة) . . التى أصبحت تكنى (بأم حبيبة) . .

زادت أحزانهما فى الغربة .

فأبوها (أبو سفيان بن حرب) واحد من أشد الناس كراهية لمحمد وما جاء به من الحق . . وكأنه وهب عمره للقضاء على الدعوة وصاحب الدعوة . . وهو لا يقل عداء للدعوة عن أبى جهل .

وزوجها هو الآخر قد باع دينه بدنيا فانية .

وهى وحيدة مع طفلتها التى ولدت على أرض غريبة . .

ما أعظم أحزان هذه السيدة الجليلة . وإسلامها يأبى عليها أن تعود إلى أبيها فى مكة . . وردة زوجها أصابتها بخنجر فى الصميم . . من أعماق . . أعماق نفسها . . !

لقد بعثت مكة « بعمرو بن العاص رسولا من قبلها إلى النجاشى يؤلبه بما أوتى من مكر ودهاء على المسلمين . . وهناك على تلك الأرض الغريبة صمد المسلمون لهذه المحنة . . وأخذ جعفر بن أبى طالب . . أحد مهاجرى مكة فى الحبشة . . يرد على عمرو بن العاص أمام النجاشى . . ليكشف أمره . . وكان صورة مشرقة للمسلم الواعى المحافظ على دينه وشرف عقيدته . . ونبل الرسالة التى يؤمن بها .

قال جعفر للنجاشى وهو يشرح له الدين الذى من أجله هاجروا إلى بلاده تحسبا من بطش كفار مكة وجبروتهم .

— « أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل

الميتة .. ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ويظلم القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفته ، فدعانا إلى عبادة إله واحد ، وأن نخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من أحجار وأصنام ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم .. وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فآمنا به ، واتبعناه فيما جاء به ، فعدا علينا قومنا .. فعذبونا ليردونا عن ديننا إلى عبادتهم ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك » .

وتأمل النجاشى فيما يسمع وطلب من جعفر أن يقرأ عليه شيئا من القرآن الكريم فقرأ له :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153) ﴾

(سورة الانعام)

وصمت النجاشى وهو متمعن فيما يقوله جعفر وقال :

— ان هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

وقال لابن العاص وزميله عبد الله بن أبى ربيعة :

— انطلقا إلى قومكما ، فوالله لا أسلمهم لكما أبدا » .

ولكن عمرو بن العاص وصاحبه لا يريدان أن يستسلما للهزيمة فحاولا أن يكيدا للمسلمين ، وأن يوقعا بين النجاشى وبين من حلوا ضيوفا عليه .

فقال للملك : ولكن المسلمين يقولون فى عيسى بن مريم قولا فظيعا . .

فسأل النجاشى : ماذا يقولون فى عيسى ؟

— ورد جعفر نقول فيه ما قال الله بشأنه . . وتلا قوله تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾
فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا
﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا
أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي
غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ
هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾
فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ
النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا
مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ

بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

(سورة مريم)

وما كاد النجاشي يسمع هذه الكلمات من القرآن الكريم حتى قال :
— والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا القول .
وترك النجاشي للمسلمين حرية العبادة ، ورفض دسيسة عمرو بن العاص .

* * *

وعلم خاتم النبيين بما جرى لأم حبيبة .. وصمودها وتمسكها بإيمانها فى أرض الغربة .. فلم يشأ أن تعيش مع حزنها وألمها .. وغربتها وهجران زوجها وكفره بعد إيمانه .

وقرر أن تكون زوجة له . وتكون أما من أمهات المؤمنين تكريما لشجاعتها وموقفها العظيم .. وأرسل للنجاشي يوكله عنه فى عقد الزواج .

وقد رأت أم حبيبة فى منامها من يقول لها « أنت أم المؤمنين » .

وفرحت لهذه الرؤيا .. إلى أن طرقت بابها ذات يوم جارية حبشية جاءتها من قبل النجاشي وكانت اسمها « أبرهة » .. جاءتها لتخبرها أن نبي الإسلام بعث لها رسولا يريد الزواج منها .. وأن النجاشي يسألها عمن توكله عنها فى عقد الزواج .. فاختارت خالد بن سعيد وطلب النجاشي من جعفر أن يعقد القران .. وقد أهداها النجاشي أربعمائة دينار وأعطاها خالدا وقال له :

— هذا صداقها هدية منى لنبى العرب .
وقد أهداها النجاشى بعض الهدايا .
وتمضى الأيام . .
ويعلم المهاجرون فى الحبشة بأن المسلمين فى المدينة قد استطاعوا أن يثبتوا أقدامهم . . وأصبحت لهم قوة تهاب مكة . . بل ان المسلمين قد حققوا انتصارا هائلا عليهم فى « بدر » . . حيث صمدت القوة المؤمنة رغم قلتها على الكثرة من أهل الكفر . . وانه قد سقط فى هذه المعركة العديد من صناديد مكة وأئمة الكفر بها ، ومنهم أبو جهل .
ولم تستطع قريش أن ترد على الهزيمة المنكرة فى « بدر » عندما تقدمت بزعامة (أبو سفيان) لأخذ ثأرها من قتلى بدر ، ولكن النصر كان هزيلا . . ولم يحقق الهدف منه فقد آثرت مكة العودة من حيث أتت ، خوفا من أن ترجح مرة ثانية لصالح المسلمين .
لقد أصبح للمسلمين قوتهم التى لا تنازع . . وهم يزدادون كل يوم قوة وصلابة . .
أمام هذا الوضع الجديد قرر المهاجرون العودة إلى بلادهم والذهاب إلى مدينة الرسول ليكونوا عونا للنبى فى كفاحه وجهاده العظيم .
عاد المهاجرون إلى المدينة . . عقب انتصار النبى على يهود خيبر . . ولما رأى الرسول العظيم ابن عمه جعفر بن أبى طالب عانقه وقال له :
— ما أدرى بأيهم أنا أسر . . بفتح خيبر أم بقدوم جعفر .
أما أم حبيبة فكان النبى قد أعد لها بيتا بجوار أمهات المؤمنين بجوار المسجد ، وكانت فى الأربعين من عمرها كما يقول بعض الرواة . .
وعلم أبو سفيان بزواج ابنته من محمد بن عبد الله ﷺ . . فشعر بالزهو . . فإن هذا الرجل الذى يحاول أن ينازعه ويقف ضده

بالمرصاد .. يثبت فى كل لحظة من لحظات عمره بعظمته التى لا يحدها حد .. فهو بالمؤمنين رءوف رحيم .. وهو يعرف مدى عداوة أبوسفيان بن حرب للدعوة .. وصاحب الدعوة .. ومع ذلك فلم يترك ابنته فى غربتها أسيرة الألم الفاجع والحزن الممض وهى تعيش فى غربتها فى بلاد بعيدة .. فإذا بمحمد ﷺ وقد عرف ما حل بها .. وترك زوجها لها حتى يغرق فى الخمور التى كان يعشقها .. وارتداده عن دينه ..

محمد ﷺ يعرف بكل ما مر بابنة عدوه .. فلا يتركها وحيدة مع أحزانها .. فريسة الغربة ولوعتها .. فإذا به يضعها من ذات نفسه ما يجعلها تعلو فوق ما ألم بها من جراح . لقد أصبحت زوجة لصاحب الرسالة رغم أنه يفصل بينه وبينها مئات الأميال .. !

سمع أبو سفيان بذلك فقال :

— أما محمد ففحل لا يجدع أنفه .

وهذا كناية على أنه كالجمل الذى ليس له مثيل .. لا يستطيع أحد أن يضربه على أنفه .. فهو شديد الحرص على أن يكون عزيزا أبيا .. يأبى المهانة له .. أو لأحد من أتباعه ..

وتمضى الأيام ..

ومكة يتناهى إلى سمعها انتصارات المسلمين .. ودخول الناس فى الإسلام .. وكان هناك معاهدة .. هى « صلح الحديبية » بين مكة والرسول ﷺ . غير أن بعض المتهورين من شباب مكة حاولوا أن يثيروا « بنى بكر » على قبيلة خزاعة وكانت خزاعة متحالفة مع الرسول .. واستنجدت خزاعة بالنبى .. وخشيت مكة أن يعلم الرسول بذلك فيناصر خزاعة ، وينتهى بذلك صلح الحديبية .

ويحدث احتكاك عسكرى بين الرسول ومكة .

ان مكة تعلم تماما أن المسلمين الذين انتصروا على اليهود .. وجابهوا الروم فى مؤته « أصبحوا قوة هائلة لا يمكن لمكة أن تتصدى لها .

وقررت مكة أن يذهب زعيمها أبو سفيان إلى المدينة لمفاوضة النبى .. ومد العمل بصلح الحديبية ، وحل المشكلات وديا .. ولم يكن أبو سفيان يعلم أن الرسول قد علم بانتهاك مكة للمعاهدة .. بمناصرة بعض شبابها لبكر على خزاعة .

وتوجه أبو سفيان إلى المدينة .. وكان أول ما خطر على باله أن يذهب إلى ابنته (أم حبيبة) أم المؤمنين .. وقد أخفى وجهه .. وما كاد يطرق الباب ، حتى خرجت ابنته وعرفته .

ولكنه ذهل من هذه المقابلة .. فهى لم تقابله بالحفاوة التى كان يود أن تقابله بها ، انها كانت تود أن ترى والدها مسلما .. مؤمنا وليس سيفا مسلطا على رقاب المؤمنين .

ما الذى جاء به ؟

هل يرد خيرا لنفسه بدخوله الإسلام أم يضمر فى نفسه شيئا ؟

تقدم أبو سفيان ليجلس على فراش الرسول ﷺ ، فإذا بابنته تبعد الفراش عنه ..

ذهل أبو سفيان وقال لها :

— يا بنية أهو أعظم من أجلس عليه أم هو ادنى ؟

قالت له ابنته مجيبة على تساؤله :

— هو فراش رسول الله الطاهر .. وأنت مشرك نجس !!

زادت دهشة أبو سفيان وقال لها :

— لقد أصابك بعدى يا بنية شر !

قالت له ابنته أم المؤمنين :

— كلا .. أصابنى كل الخير والحمد لله ..

ولم يجد أبو سفيان أمامه إلا أن يتوجه إلى مسجد رسول الله وهناك رأى أعظم رسل الله .. وقد أشاح بوجهه عنه .. والصحابة من المهاجرين والأنصار يحيطون به ، ويجلونه .. ولا يرفعون أصواتهم فوق صوته .. وإذا تكلم علاه الوقار .. وصمت الجميع كأن على رءوسهم الطير .. وشعر بعظمة وهيبة الرسول ..

وحاول أن يستشفع له أحد من الصحابة .. فطاف على أبى بكر وعمر وعلى .. دون جدوى .. فتوجه إلى بيت على بن أبى طالب حتى تجيره فاطمة بنت الرسول .. فقالت له :

— انما أنا امرأة .

فأشار إلى الحسن وهو مازال طفلا يحبو .

— مرى غلامك هذا فيجير بين الناس ! فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر !

والله ما بلغ غلامى هذا أن يجير بين الناس !

وخارت قوى أبو سفيان .. ولم يجد أمامه إلا أن يذهب إلى مسجد الرسول .. عملا بنصيحة على بن أبى طالب .. وأن يقول للناس :

— أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس !

وعاد إلى مكة منكسر الخاطر .. وقد حز فى نفسه سخرية الناس منه .. وآلمه أكثر أن تكون ابنته « أم حبيبة » أكثر الناس استهزاء به لأنه لم يدخل فى دين الله .. وظل زعيما للكفر .. وظل يعادى زوجها العظيم .

وتمضى الأيام ..

ويقرر الرسول الكريم فتح مكة .. ووجد أبو سفيان وقد هاله محاصرة جيش الرسول لمكة أن يصاب بالدوار .. وتنتابه الحيرة ..

ماذا يفعل أمام انتصار المسلمين المحقق . .
سأل العباس عم الرسول لعله يخرج من حيرته عن الطريق الذى ينبغى أن يسلكه .
نصحه العباس بأن يعلن إسلامه وإلا فسوف يفقد رأسه !
فأعلن إسلامه . .
وطلب العباس من ابن أخيه أن يعطى أبا سفيان شيئا يفتخر به لأنه يحب الفخر .
فقال الرسول الكريم :
— « دعه ينادى قريش . . من دخل المسجد الحرام فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ! » .
ودخل الرسول العظيم مكة منتصرا ، وحطم الأصنام من حول الكعبة . . ودخل الناس فى دين الله أفواجا . .
وتمضى الأيام . .
ويصبح أخوها معاوية بن أبى سفيان مؤسس دولة بنى أمية . . تلك الدولة التى استطاعت أن تمد نور الإسلام والحضارة الإسلامية إلى أماكن لم تكن تخطر على بال . وقد انتقلت إلى جوار ربها ودفنت فى البقيع فى خلافة أخيها معوية بن أبى سفيان وكان ذلك سنة ٤٤ هجرية .

ميمونة بنت الحارث

فى أول ذى القعدة من السنة السابعة خرج الرسول ﷺ لعمرة القضاء ، وكان عدد المسلمين يزيد على الألفين . . وكانت هذه العمرة بدل العمرة التى خرج الرسول لتأديتها وأبت مكة إلا أن يعود فى العام الذى يليه بمقتضى صلح الحديبية .

ودخل المسلمون مكة وهم يظهرون قوتهم للمشركين ، وقد هال سكان مكة أن يروا المسلمين بكل هذه القوة وهم يهللون ويكبرون عند دخولهم بيت الله الحرام . . حتى أن كثيرا منهم غادرها حتى لا يروا المسلمين يعودون إلى أم القرى رغما عن أنوفهم ويطوفون بالبيت العتيق .

ارتفعت أصوات المسلمين . . وقد وعوا كلمة الرسول لهم :

— « رحم الله امرأ أراهم اليوم قوة من نفسه » .

وعندما لاح للمسلمين أول بيت وضع للناس قالوا بصوت يرج مكة كلها :

— « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » .

وبعد أن أتم الرسول مناسك العمرة . . ظل إلى جوار الكعبة حتى صلاة الظهر . . وهناك أمر بلال أن يقوم بالأذان من فوق الكعبة . . وقد اغتاظ المشركون لما رأوا من قوة المسلمين وبأسهم . . فهؤلاء الذين خرجوا مهاجرين من سنوات يعودون إليها اليوم بعد أن حققوا العديد من الانتصارات على مشركى مكة . . وعلى اليهود . . وأصبحوا أصحاب قوة ونفوذ . . فقد بدل الله خوفهم أمنا . وضعفهم قوة . . وها هم اليوم يعودون إلى البلد الذى طردهم لا يخافون أحدا . . ولا يهابون أحدا إلا الله سبحانه وتعالى » وكان للمسلمين الحق فى الإقامة فى مكة ثلاثة أيام على حسب اتفاق صلح الحديبية .

وفى هذه الأثناء خطب النبى ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وهى خت (أم الفضل) زوجة العباس بن عبدالمطلب .. وكان قد مات عنها زوجها ..

وأراد الرسول الكريم أن يعرس بها فى مكة ، وأن يقيم مأدبة يدعو فيها أهل مكة لعل قلوبهم تلين ، ويبتعدوا عن صلفهم وعدائهم للنبى والإسلام بلا مبرر إلا الحقد ودواعى الجاهلية ، ولكنهم أصموا آذانهم ، ورفضوا أن يقيم المسلمون مدة أكثر من المدة التى حددتها المعاهدة المبرمة بينهم وبين الرسول فى الحديبية . وخرج الرسول متجها صوب المدينة .

وعند (سرف) على بعد أميال من مكة .. لحقت به زوجته ميمونة حيث بنى بها الرسول .

وميمونة وكان اسمها (بره) كانت واحدة من أربع نساء فضليات .. فأختها أم الفضل تزوجت عم النبى العباس ، وكانت من أوائل النساء اللاتى أعلن إسلامهن بعد خديجة رضى الله عنها .. وأختها الأخرى أسماء بنت عميس زوجة ابن عم الرسول جعفر بن أبى طالب .. وأخت سلوى بنت عميس زوج أسد الله حمزة بن عبدالمطلب ..

ويقول الرواة أن ميمونة هى التى رغبت فى الزواج من آخر رسل الله وانها أسرت إلى أختها أم الفضل بذلك .. وأخبرت أم الفضل زوجها العباس الذى نقل رغبة (ميمونة) إلى ابن أخيه .. فما كان من الرسول إلا أن بعث بجعفر ليخطبها ..

ويقال أيضا انها عندما علمت أن رسول الله وافق على رغبتها انها ركبت راحلتها وتوجهت حيث يوجد الرسول ﷺ وقالت له :

— « البعير وما عليه لله ورسوله .

لقد كانت صادقة مع نفسها .. صادقة مع مشاعرها .. لم تبال

بما يقوله المنافقون . .

وقد نزل قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة الاحزاب)

وكانت ميمونة هي آخر زوجات رسول الله . . وقد انتقلت إلى جوار ربها سنة ٥١ هجرية . . ودفنت فى (سرف) نفس المكان الذى بنى بها رسول الله ﷺ .

* * *

أما مارية القبطية التى أهداها للنبى ﷺ المقوقس عظيم مصر ردا على رسالته ، والتى أنجبت له ابنه إبراهيم فلم تكن أما من أمهات المسلمين ، ولكنها كانت مع النبى ﷺ بملك اليمين ، وقد أسكنها الرسول ﷺ بعالية المدينة حتى تبتعد عن غيرة نسائه وخاصة عائشة التى قالت عنها :

— ما غرت من امرأة إلا مثل ما غرت من مارية ، وذلك انها كانت جميلة جعدة ، فأعجب بها رسول الله ﷺ وكان قد أنزلها أول ما قدم بها

فى بيت (حارثة بن النعمان) فكانت جارتنا ، وكان عامة النهار عندها ، فجزعت ، فحولها إلى العالية بأقصى المدينة ، وكان يذهب إليها هناك ، فكان ذلك أشد علينا » .

وقد بلغت من غيرة عائشة منها أن النبى ﷺ عندما أنجب منها ابنه إبراهيم ، كان شديد الفرح به ، وحمله إلى أم المؤمنين عائشة ولكن عائشة قالت له :

— ما أراه يشبهك فى شىء !!

فقال لها الرسول العظيم وهو يحمل فلذة كبده :

— انكن صواحب يوسف .

وقد حزن الرسول حزنا شديدا عندما مات إبراهيم ، وقال كلمته الخالدة :

— « تدمع العين ، ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، انا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون » .

وقد توفيت رضى الله عنها فى خلافة عمر بن الخطاب ودفنت بالبقيع .

افتراءات ـ وحقائق

كانت حياة النبى ﷺ فى بيته مثالا لما ينبغى أن تكون الحياة بين الأزواج . . فهو يسوى بينهن . . وعندما يسافر فى غزوة أو غيرها يقرع بين نسائه . . وفى خطبة الوداع الخالدة التى التقى خلالها بأكبر حشد إسلامى أوصى بالنساء خيرا .

ومع ذلك نرى المستشرقين وبعض الذين انبهروا بآرائهم ورددوها بلا فهم لأمور دينهم . . صوروا الرسول وكأن كل همه النساء . . وقالوا انه تزوج منهن الكثيرات ! .

لقد ركزوا على هذه الناحية من حياته . . ولم يركزوا على النواحى الأخرى . . بما جاء من تعاليم الإسلام السمحة . . وشخصيته المتكاملة التى كانت وستظل قدوة للمسلمين إلى يوم البعث . . وخصوصياته التى انفرد بها ولم يكلف أحدا من أتباعه بالسير عليها . . كصوم الوصال حيث كان يواصل صيام النهار بالليل فى بعض الأحيان . . وقيامه الليل واقفا . . راكعا . . ساجدا لله تعالى حتى تتورم قدماه . . شكرا لله . وحمدا .

وحياته الزاهدة المتقشفة التى لم تعرف لين الطعام ولا الشراب ولا النوم . . وهو الذى كان له خمس الغنائم . . الذى كان يوزعها على الناس ويعيش كما كان يعيش على القوت الضرورى ان وجد ! .

وهو الذى رفض مطالب زوجاته عندما أردن أن يعشن كما تعيش بقية النساء فى بحبوحة من العيش ، وخيرهن بين أن يعشن كما يعيش أو يسرحهن سراحا جميلا فضلن الحياة مع الرسول فى ظل حياة بالغة الزهد والتقشف . . حتى رأينا عمر بن الخطاب أمير الزهاد وسيدهم . . والذى عرفنا حياته عندما آلت إليه الخلافة واجتاحت جيوش المسلمين فى عهده امبراطوريتى الفرس والروم . . وخضعت له الفرس والشام والعراق ومصر وأصبح الشمال الافريقى كله قاب قوسين أو أدنى من

السقوط تحت سنابك جيوش المسلمين التى تنتشر بسرعة الضوء .. بسبب ما فى هذا الدين العظيم من عقيدة التوحيد الخالص .. وما فيه من تشريعات وأخلاقيات تكفل للمجتمعات العاملة بها إلى الصعود إلى مجالات لا تخطر على البال .. عمر فى ظل هذه الامبراطورية الشاسعة كان يعيش على الكفاف .. عمر هذا عندما رأى حياة الرسول المتقشفة بكى .. أين هذه الحياة التى يعيشها خاتم النبيين لا من حياة الأباطرة والأكاسرة .. بل من حياة الرجل العادى .. وجد الحصير وقد ترك علاماته على جسد الرسول ولم يجد من الرسول إلا قوله له :

— « كن فى الدنيا كغريب أو عابر سبيل .. ! »

هذه هى العظمة المتمثلة فى سلوكيات وأخلاقيات سيد البشر محمد ابن عبد الله ..

ولنرجع إلى حياته ﷺ .. وهو طفل صغير يتيم فى كنف جده عبدالمطلب ، ثم عمه أبو طالب .. لا يرفع يده أو يخفضها عندما يأكل أولاد عمه .. بل يتقدم ببطء عندما يجد الطعام خاليا من يد تمتد إليه .. حتى ان عمه كان يقدم له الطعام لفرط حيائه .. وعندما بلغ سن الصبا كان يرعى الغنم حتى يكفل طعامه لنفسه .

وعندما بلغ سن الشباب .. وكان وسيما بالغ الوسامة .. متحدثا لبقا .. يعتد بذاته إلى أقصى الحدود .. لم يسجد لصنم قط ، ولم يمتهن عقله .. وقد هداه طول تأمله فيما حوله من مظاهر الحياة إلى التأنى فى إصدار الأحكام .. حتى أصبح فتى مكة الذى يشار إليه بأنه (الأمين) ..

هذا الشاب الجلد .. الذى لا تستوقفه الأشياء الصغيرة .. لم تستهوه امرأة فى هذه السن التى يتطلع فيها الشباب إلى جميلات النساء .. ولم يشع عنه انه استرق النظر إلى امرأة .. بل كان الشائع

عنه بجانب أمانته .. حبه للعزلة .. والتأمل والبعد عن كل ما يستهوى الشباب .

أخذه التأمل الجليل فى سنه الصغيرة حول سر هذا الكون العجيب من حوله ؟ . الأرض وما فيها من جبال وسهول ووديان وزروع وطير وحيوان .. والسماء المزدانة بالنجوم .. وتعاقب الليل والنهار .. عادات قومه وعباداتهم لأصنام يصنعونها ويعبدونها من دون الله .

وبيت الله الحرام الذى تعظمه العرب ويملأونه بالأصنام ... والأصنام حجارة صماء .. بكماء .. عمياء .. لا تنفع ولا تضر .. وهؤلاء الحنفاء الذين عرفتهم البلاد .. وكان الناس لا يأبهون بهم .. ولا يخشون دعوتهم .. ولا يتركون أى بصمات على مجتمعاتهم .. إنما هى كلمات يرددها الناس وهناك ترتسم الدهشة على وجوههم حينا .. وقد لا يعيرون ذلك اهتماما فى أحيان كثيرة .. ولكن فى كل الأحوال لم يلفت أحد الأنظار إليه ، ويجدون فيه خطرا على معتقداتهم وحياتهم العامة والخاصة .

وفى ظل هذا المناخ الذى كان للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء ، أو يتردد على أصحاب (الرايات الحمر) وهى بيوت الدعارة التى كانت منتشرة .. لم يتلهف ﷺ على شىء من هذا .. ولا تحدث أحد من أعدائه عن ولعه بالنساء .

وعندما تزوج من خديجة بنت خويلد كان فى الخامسة والعشرين من عمره ، وكانت هى فى الأربعين من عمرها .. وظل معها لم يتزوج عليها طوال حياتها .. ولا راودته نفسه فى ذلك .. وعندما جاءه الوحى وهو فى الأربعين من عمره وقفت معه هذه السيدة الجليلة .. تشد أزره .. وتساعده بمالها ونفوذها ..

عاش معها حتى بلغ الرابعة والخمسين من عمره .. إلى أن انتقلت

إلى رحاب الله .

فالرسول ﷺ لم يعرف من النساء إلا زوجته خديجة حتى بلغ الرابعة والخمسين من عمره .. فى هذه السنوات انقضى شبابه فى الدعوة إلى الله ، والجهاد فى سبيل الدعوة .. ومجابهة أعداء الإسلام وحربهم الشرسة ضده وضد ما جاء به الإسلام .. وهذه هى سن الرجولة الذى لم يعش فيها إلا لدعوته وفى ظل ظروف بالغة القسوة والشراسة من الأعداء ، وبين سن الرابعة والخمسين حتى الستين تزوج بكل من تزوج بهن من النساء .. فهو زواج ليس من ورائه المتعة وقد تجاوزها فى مراحل شبابه .. ولكن كان هذا الزواج اما لتأليف قلوب البعض ممن لم يؤمن بالإسلام ويحاربه ، واما عطفا على هؤلاء الذين تخلى عنهن أزواجهم اما بالرجوع عن الإسلام أو الاستشهاد فى سبيله .. أو جبر خاطر لنساء كان لهن دورهن في الإسلام .. أو تأكيدا لأواصر الصداقة عندما تزوج من عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر .

ومن الستين من عمره إلى أن لقى الله سبحانه وتعالى لم يتزوج الرسول .

يقول مولاى محمد على فى كتابه (محمد رسول الله) : كان أعزب حتى الخامسة والعشرين ، وعاش مع زوجة واحدة من الخامسة والعشرين حتى الرابعة والخمسين ، وتزوج عدة زوجات بين الرابعة والخمسين والستين .. ولم يتزوج من الستين إلى أن لحق بالرفيق الأعلى » .

ومع كل هذه الزوجات لم ينس زواجه الأول من أم المؤمنين خديجة التى عاشت معه أجمل وأصعب أيام عمره .. كان يعطف على صديقاتها وعندما يرى إحداهن يتذكرها .. ويتذكر أيامها معه .. ويتذكر دائما مواقفها الكريمة معه .. وان الله رزقه منها الولد دون نسائه

الأخريات .. وواسته بمالها وكل جهدها ..

وتبلغ عظمة الرسول مداها .. عندما ضم إلى بيته هذا العدد من النساء .. وكان يعدل بينهن فيما يقدر عليه ، اما الميل القلبى فهذا شيء ليس فى طاقة البشر ، أو على حد تعبيره : هذا قسمي فيما أملك فلا تآخذنى فيما تملك ولا أملك » .

تبلغ عظمة النبى المنتهى عندما يعدل بين نسائه ، ثم يلتمس لهن الأعذار فيما يتعلق بالطبيعة البشرية وما يعتريها من الغيرة .. فكان يبرر سلوك عائشة التى تدفعها الغيرة بقوله :

— « ويحها لو استطاعت ما فعلت » .

أى خبرة جليلة للنفس البشرية الإنسانية فى لحظات قوتها ولحظات ضعفها .. ما تستطيعه ومالا تستطيعه كان يعرفه ويقدره الرسول الكريم .

وعندما قالت له عائشة ذات يوم عندما تذكر خديجة فاثالت ذكرياته ..

— هل كانت إلا عجوزا بدّلك الله خيرا منها ؟

رد عليها ﷺ بكل العرفان والوفاء .

— « لا والله ما أبدلنى خيرا منها .. آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء » .

هذا وفاء محمد العظيم .. لامرأة ماتت من سنين .. لم تستخفه ما يستخف الرجال أمام امرأة شابة جميلة ولكن الوفاء طبعه وطبيعته ..

وعاش النبى مع زوجاته وقد عودهن الحياة الزاهدة معه ورضين أن يعشن فى بيت النبوة تتنزل عليهم رحمات الله .. واقتنعن أنهن يختلفن عن باقى نساء المسلمين .. فهن قدوة ومثال .

ومع ذلك فقد تعرض لما يتعرض له أى بشر عندما يتعرض لما يسوؤه فى شرفه .. ومن هنا تبدو عظمته عليه السلام ، وتحمله ما ليس فى طاقة البشر ، فعندما حدث حديث الافك واتهمت زوجته عائشة .. ماذا كان موقف الرسول إزاء هذا الحدث الخطير ..؟

يقول الشيخ محمد أبو زهرة وهو يتحدث عن (الصابر المصابر) :

— وان الشدائد النفسية تحتاج إلى الصبر أكثر من الشدائد المادية ، وانظر إلى الصابر ، عندما أشاعوا مقالة السوء عن حبه أم المؤمنين عائشة ، فقد تلقى الخبر وساوره الظن ، وبدا فى ملامح وجهه ، ولكنه كان العقل الكامل فى الثبات وتقدير الأمر ، ودعا بعض خاصته للاستشارة فى هذا الافك ، وليعرف مقدار الحق فيه .. فمنهم من نفى الوقوع وأكد النفى كعمر رضى الله عنه ، ومنهم من دعا إلى التحرى بسؤال جاريتها وهو على .

ان ذلك لا يكون إلا من صبور حكيم متدبر يغلب العقل والفكر فى وقت تطيش فيه الأفهام ، وتجيش فيه العواطف ، ولكن النفس نفس محمد ﷺ فتسيطر عليها بالحكمة دائما .

وللعقاد رأى عميق فى مسألة تعدد زواج الرسول ﷺ ، وما أثير حول هذا الزواج من أقاويل المستشرقين .. يقول فى كتابه (عبقرية محمد) :

— ..... فهو أولا رجل يطلب ما يطلبه الرجل من المرأة ، ومن قبل كل شىء لا نرى ضيرا على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمتعتها ، هذا سواء فى النظرة لا عيب فيه .. وهذه النفس السوية يمكننا أن نفهمها بجلاء حين نرى ان المرأة لم تشغله عما تشغل به المرأة الرجل المفرط فى معرفة النساء من مهام الأمور والقيام بالأعباء الجسام . فمهما قال هؤلاء فلن يستطيعوا أن ينكروا ان محمدا قد حقق

ما لم يحققه بشر قبله ولا بعده ولم يشغله عن هذا شيء فإن كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها ، ويعطى المرأة حقها فالعظمة رجحان وليست بنقص ، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب ، ومحمد الذى خير نساءه بين أن يرضين بحياة الكفاف أو يسرحهن سراحا جميلا ليس بالضرورة رجلا خاضعا للذات حسه فلو شاء لأغدق، عليهن النعمة وأغرقهن فى الحرير والذهب وأطايب الملذات ، وليس هذا فعل رجل يستسلم للذات حسه » .

وقال العقاد بعقلانيته المعروفة عنه . . وهو يضع النقط فوق الحروف فى رده على شبهات أعداء الإسلام والذين يرددون كلمات لا غرض منها ولا من ورائها إلا بلبلة الأفكار وطعن عقيدة الإسلام ، والتشهير بالنبى ﷺ :

يقول العقاد :

— قال لنا بعض المستشرقين : ان تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية ، قلنا أنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لانه لم يتزوج قط ، فلا ينبغى أن تصف محمدا بأنه مفرط الجنسية لانه جمع بين تسع نساء ، فالنبى ﷺ أمكنه أن يعرس تسع زوجات لم يؤثر عنهن خصام أو نزاع إلا مرات تعد على أصابع اليد ، فمن أتيح له أن يجمع بين عدد من الزوجات فعليه أن يقتدى به فى معاملة زوجاته بالعدل ومعالجة الشئون المنزلية بالإناة وسعة الصدر ، وعلى النساء أن يتخذن من زوجات النبى الكثيرات مثالا صالحا يحتذينه من العفة والزهد وتدبير المنزل والرضا بما قدر لهن من متاع فى هذه الحياة الدنيا ، وبذلك تسعد الأسرة بتمامها وتقوم بواجبها نحو الله ونحو المجتمع الإنسانى » .

ولو أن المسلمين وغيرهم تأملوا فى حياة النبى مع نسائه واقتدوا به

فى معاملة الأزواج والأبناء والأقارب كما أمرهم الله لعاشوا عيشة راضية مرضية .

والعجب ان المستشرقين وقفوا طويلا عند قصة زواج النبى من زينب بنت جحش . . وصوروا القصة بصورة درامية فقالوا : ان الرسول كان يتردد على بنت زينب بنت جحش بعد أن تزوجت زيد بن حارثة . . ولكنه ذهب إليها ذات مرة فكانت عارية . . فاكتشف جمالها الخارق . . وخلبت لبه . . فطلقها من زيد ليتزوجها !!

تحدثوا عن هذه القصة بصورة أقرب من السيناريو الذى نشاهده فى أفلام الغرب المحبوكة . . ووضعوا لها رتوشا وخلفيات . . وأضواء عكسوها فى مختلف زوايا القصة . . وكان الرسول لا هم له إلا امتلاكها بعد أن شاهدها بكل هذا الجمال . . !

ونسى هؤلاء الذين يتحدثون هذا الكلام أن زينب بنت جحش ابنة عمة الرسول . . أى انه كان يعرفها قبل أن يدخل بها زيد . . فهو الذى زوجها له رغم معارضتها ومعارضة أخيها لهذا الزواج . . فكيف انبهر بجمالها عندما رآها . .

انها هواية المستشرقين عندما يحاولون تزييف الحقائق ووضع رتوش لصورة تخيلوها وأرادوا أن يقنعوا بها من تنطلى عليهم كلماتهم التى لا تهدف إلا إلى التضليل وتشويه سمعة رسول الله عند الغرب ، وبلبلة أفكار المسلمين عن دينهم العظيم .

وقد رد الأستاذ عباس العقاد على هذه القصة وما فيها من افتراء بقوله :

— « ليس أسهل من شيوع هذه الأكذوبة وترويجها وتنميقها وإخراجها فى قصة غرام تذاع للتشهير برسول الإسلام كما شاعت فى القرون الوسطى ، وليس أسهل من إسقاطها وإسقاط المروجين لها بخبر

واحد لا شك فيه من أخبارها الكثيرة . . ان زوجة زيد كانت بنت السيدة أميمة بنت عبدالمطلب عمة النبى عليه السلام ، وان النبى ﷺ هو الذى زوجها من ربيبه وعتيقه زيد ، وما كان جمالها خفيا عليه قبل تزويجها بمولاه لأنها كانت بنت عمه يراها منذ طفولته وتراه . ولم تفاجئه بروعة لم يعهدها وهو لا يطمع إلى الزواج من مثلها ، ويكفى أن نعرف هذا الخبر لتسقط الأكذوبة كلها ، وشىء من التفصيل القليل لهذا الخبر يعكس الفضيحة على المبطلين ليعلموا حقيقة القصة المخزية ، ويعلموا انها آية الحق الكريم فى نبى المسلمين ، وأن زيدا الذى زوجه النبى من بنت عمته لم يكن إلا أسيرا عتيقا رباه النبى فأخلص له ولدينه ، وأكثر المقام إلى جواره على الرجوع إلى أهله بعد تسريحه .

ورفع السيد الكريم عن عبده العتيق ذلة الرق بمصاهرته والمساواة بينه وبين كرام أهله ، وأطاعت الزوجة النبى كما ينبغى لمثلها مع مثله ، ولكنها عاشت مع زوجها كسيرة الخاطر ، لما كانت تتبينه من نظرات لداتها وقريناتها ، ويشعر زيد بما تضمره من الحزن والأنفة فيهم بتطليقها ولكنه يستكبر أن يقابل جميل النبى برفض الزوجة التى اختارها له وميزه بها على صحبه فارتفعت بنبى الإسلام مروءته إلى حيث أن ينبغى أن ترتفع مروءة الأنبياء وأحل زيدا من حرجه وعوض زينب عن مهانتها لتعلم ويعلم الناس انها كفء له وان كان قد اختارها لفتاه الذى كان يتبناه ، ولولا ذلك لعاشت الزوجة المطلقة معضلة بين لداتها وأترابها وهى لا تطمع فى الزواج من كفء لها بعد تطليقها ، وليس مما يجبر خاطر الكسير أن يساق إليها الزوج الذى يكافئها وتكافئه مأمولا بزواجها .

تلك قصة أرسلوها فى غياهب القرون الوسطى لينظر الناس فى ظلماتها إلى وصمة إنسانية يعاف من أجلها خلق الإنسان ويعاف الدين

الذى يدعو إليه من أجله ، ويزيد عليها خبر صغير لا شك فيه فإذا هى شهادة بالنبوة كأحسن ما تكون الشهادة للأنبياء إلا أنها شهادة بغاية البر والإحسان إلى الأسير الضعيف الغريب عن أهله ووطنه ، وغاية البر والإحسان إلى المرأة المجروحة فى عزتها بعد أن غلبها ضعف الأنوثة .. وكانت فضيلة الصدق مع فضيلة العفة أكبر الأهداف التى تعمدها أصحاب هذه المكيدة بالإنكار فيما زيفوه من القصص المحرفة عن صفات النبى .

فهؤلاء الذين يحاولون النيل من الرسول ﷺ ، طاشت سهامهم .. فكلماتهم تنم عن الكراهية والحقد ولا تنم على علم ولا موضوعية .

وكأن لم يكن هناك تعدد قبل الإسلام .. وان الإسلام هو الذى ابتدع هذا التعدد .. مع انه كان موجودا فى كل الأنظمة التى جاءت قبل الإسلام ، وقد نظم الإسلام هذا التعدد ، وحصره فى واحدة لأن العدل مستحيل بين النسوة ﴿ .. ولن تعدلوا بين الناس ولو حرصتم ﴾ .. وأباح الإسلام التعدد تحت ظروف معروفة .. والتعدد بالنسبة للرسول كان له دوافعه .. وهو من خصوصيات الرسول .. فقد تزوج من تزوج لمعالجة جروحهن .. والعطف عليهن .. فقد كن أرامل مهيضات الجناح .

والذين يتحدثون عن تعدد أزواج النبى ينسون أن المسيحية ليس فيها ما يمنع من التعدد ، وليس فى الإنجيل نص واحد يحدد الزواج بواحدة لأن الإنجيل هو امتداد للتوراة .. والتوراة ليس فيها ما يحد من التعدد ولكن الذى منع التعدد تعليمات من الكنيسة لا صلة لها بما ورد فى التوراة والإنجيل ، ومن هنا فقد وجدنا العديد من ملوك أوربا المسيحيين يتزوجون أكثر من واحدة .. و « لوثر » مؤسس المذهب البروتستانتى يقول عن تعدد الزوجات :

— « ان الرب لم يحرمه ، حقا ان الرب لم يسمح بمثل هذه الزيجات إلا لبعض الرجال فى التوراة ، وفى ظل ظروف خاصة ، وان على المسيحى الذى يريد الاقتداء بهم أن يثبت أن ظروفه مشابهة لهذه الظروف ، إلا أن تعدد الزوجات أفضل يقينا من الطلاق » . .

ومن الكلمات التى يرددها المستشرقون كثيرا ، والذين ينساقون وراء أفكارهم هو التساؤل بإنكار عن زواج النبى بعائشة وهى فى التاسعة من عمرها .

ومع ان سن عائشة عندما بنت بالرسول اختلفت حوله الآراء ، إلا أن كثيرا من مؤرخى السيرة يرون انها كانت فى سن الزواج ، وانها كانت على أقل تقدير فى الثانية عشرة من عمرها ، والثانية عشرة فى بيئة صحراوية حارّة تكون البنت فى سن الزواج ، واستدلوا على ذلك بأنها كانت مخطوبة عندما أسلم والدها إلى جبير بن المطعم بن عدى . . ومعنى هذا انها عندما خطبت للنبى ، ودخل بها بعد ستتين من الهجرة ان عمرها كان يزيد عن الثانية عشرة من عمرها .

بل ان مولاى محمد على يرى فى كتابه (محمد رسول الله) . . ان سن عائشة عندما دخل بها الرسول كان خمسة عشر عاما . . فهو بعد أن يتحدث عن زواجه بها بعد وفاة خديجة يقول :

— « انها لفرصة طيبة لدفع أكذوبة شاعت وراجت عن سن عائشة ، فمن المسلم به انها لم تبلغ السن التى تؤهلها للزواج ، وكذلك من الواضح انها لم تكن فى سن السادسة كما زعموا . . فإنها كانت فى السن التى تجيز خطبتها فخطبها جبير ، وعلى ذلك فإنها كانت على أبواب السن التى تؤهل للزواج ، ومن الثابت ان فاطمة بنت النبى تكبرها بخمس سنوات ، ومن الثابت أيضا ان فاطمة ولدت أيام إعادة بناء الكعبة . . أى قبل أن يرسل النبى محمد بخمس سنوات ، فتكون

عائشة قد ولدت سنة نزول الوحى فكانت سنها لا تقل عن العاشرة عندما زوجت من النبى فى السنة العاشرة للرسالة ، وان شهادة عائشة نفسها الدليل على ذلك ، فقد قالت انها كانت تلعب مع أترابها عند نزول سورة القمر وهى السورة الرابعة والخمسون ، وانها كانت تحفظ بعض آيات السورة ، وهذه السورة لم تنزل إلا فى السنة الخامسة للرسالة ، وعلى ذلك فما قيل انها كانت تبلغ السادسة فى السنة العاشرة للرسالة عندما تزوجها النبى ان هو إلا قول كاذب ، وإلا كان مولدها يوم نزول سورة القمر وهو ما تنفيه هى بقولها انها حفظت بعض آياتها عند نزولها .

من هذا كله يفهم أن سنها لم تكن أقل من عشرة أعوام بحال عندما خطبها النبى ، ولما كانت المدة بين الخطبة والدخول بها لا تقل عن خمس سنوات فلما دخل النبى بها إلا فى السنة الثانية للهجرة ، وعلى ذلك يكون سنها يوم بنائه بها خمسة عشر عاما . . أما دعوى انها كانت فى السادسة عند عقد الزواج ، وان النبى بنى بها وهى فى التاسعة فهى دعوى خاطئة لأن معنى هذا ان الفترة ما بين العقد والزواج كان ثلاثة أعوام ، وهذا خطأ تاريخى لا شك فيه .

ويقول الشيخ محمد الغزالى فى كتاب (المرأة فى الإسلام) :

— ان عائشة يوم بنى بها الرسول كانت أهلا للزواج يقينا ، وما نشك أن الدافع الأول لهذا الزواج كان توثيق العلاقة بين النبى الكريم وصاحبه الأول . . وهو الدافع لتزويجه من حفصة بنت عمر بن الخطاب لما مات زوجها . . ولم تكن حفصة امرأة ذات جمال ، ولكن هذا العنصر لم يكن المانع من هذه ، ولا الدافع إلى تلك ! .

لقد كانت هناك أسباب اجتماعية وسياسية أوحت بتعزيز الروابط حينا ، وجبر الكسور حينا ، ومد الجسور بين صاحب الدعوة وأشتات

من الأتباع والأسر التى تزحم جزيرة العرب فى أيام مليئة بالأزمات والمحرجات .

ويرد الشيخ على تساؤل ويجيب عنه :

— ربما قال قائل : آمنا بأن تعدد الزوجات كان مألوفا فى الديانات الأرضية والسماوية حتى جاء الإسلام فوضع عليه القيود ، فلماذا لم يلتزم نبى الإسلام بالعدد الذى وقف بالمسلمين عنده ؟ ألم يجىء فى الأحاديث الصحاح انه أمر رجلا لديه عشر زوجات أن يمسك أربعا ويسرح الباقيات ؟

قلت : سؤال صحيح .. فلنتدبر الإجابة عليه .. ان النسوة الست اللاتى طلقهن صاحب العشرة سيتركن بيته ويجدن بيوتا أخرى ، فلهن حق الزواج ممن أحببن ، ولا حرج على أحد فى التزوج منهن .

ولكن ماذا عسى تفعل زوجات الرسول إذا كان الوحى قد نزل من قبل يقول للمسلمين : ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ان ذلكم كان عند الله عظيما ﴾ . لقد صرن أمهات المؤمنين وفق النص القائل : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم .. ﴾ .

وما كان لمؤمن أن يتزوج أمه ! فهل يسوغ بعد هذا تسريحهن ليعيشن فى وحدة وإياس ؟

ولنفرض زورا أن تسريحهن مطلوب ، فهل هذا هو الجزاء الإلهى لنسوة تحملن مع صاحب الرسالة شظف العيش ، ومشقات الحصار المضروب على أمته ؟ لقد اخترن البقاء معه عندما خيرهن وأبين العودة إلى أهلهن فى بيوت تمتلىء بالسمن والعسل .. وفضلن الإيمان والكفاح مع النبى الذى انتصب لمقاومة الضلال فى العالمين .. فهل يكون الجزاء بعد هذا الوفاء الخلاص منهن .. ان الله أذن ببقائهن ،

والاقتصار عليهن ، وصدر لهن تشريع خاص .

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وقد أعجبني ما ساقه الدكتور عبدالودود شلبي في كتابه .. « في محكمة التاريخ » .. حيث قام بالرد على كثير من المفتريات التي قيلت عن الإسلام ونبي الإسلام » في ندوات له في الخارج .. ومن بين هذه المفتريات ما قيل عن وضع المرأة في الإسلام .. وعن التعدد .. وعن زواج النبي بأكثر من واحدة .. وكانت إجاباته من خلال فهم عميق للإسلام .. فوضع بذلك النقط فوق الحروف ..

وقد ساق رأيا للشيخ مصطفى السباعي من خلال حوار دار بينه وبين البروفيسور أندرسون رئيس قسم قوانين الأحوال الشخصية في كلية الدراسات الشرقية بجامعة لندن .

يقول المرحوم الشيخ مصطفى السباعي في كتابه : (المرأة بين الفقه والقانون) : « حين سافرت إلى أوربا في عام ١٩٥٦ موفدا من جامعة دمشق في رحلة استطلاعية للجامعات والمكتبات العامة ، كان ممن اجتمعت بهم في لندن البروفيسور أندرسون رئيس قوانين الأحوال الشخصية الشرقية في معهد الدراسات الشرقية في جامعة لندن ، وجرى بيننا فيما جرى من الأحاديث نقاش حول تعدد الزوجات في الإسلام ..

سألني أندرسون : ما رأيك في تعدد الزوجات ؟

قلت له : نظام صالح يفيد المجتمعات في كثير من الظروف إذا نفذ بشروطه .

قال : انت إذن على رأى محمد عبده بوجوب تقييده .
قلت : قريبا من رأيه لا تماما . فإنى أرى ان يقيد بقدرة الزوج على الإنفاق على الزوجة الثانية ليمكن تحقيق العدل بين الزوجات كما طلب الإسلام .
قال : وهل مثلك فى هذا العصر يدافع عن تعدد الزوجات ؟
قلت : إنى أسألك فأجبنى بصراحة : من كانت عنده زوجة فمرضت مرضا معديا أو منفرا لا أمل فى الشفاء منه وهو فى مقتبل العمر والشباب .. فماذا يفعل .. ؟ هل أمامه إلا ثلاث حالات : أن يطلقها .. أو يتزوج عليها .. أو أن يخونها ويتصل بغيرها اتصالا غير مشروع !
قال : بل هناك رابعة وهى أن يصبر ويعف نفسه عن الحرام .
قلت : وهل كل إنسان يستطيع أن يفعل ذلك ؟
قال : نحن نستطيع أن نفعل بتأثير الإيمان فى نفوسنا .
فتعجبت وقلت : أتقول هذا وأنت غربى .. أنا أفهم أن يقول هذا القول مسلم أو مسيحى شرقى .. فقد يستطيع أن يكف نفسه عن الحرام لأن محيطه لا يهيىء له وسائل الاختلاط بالمرأة فى كل ساعة يشاء .. ولأن تقاليده وأخلاقه لا تزالان تسيطران على تصرفاته ولأن الدين لا يزال له تأثير فى بلاده .. أما أنتم أيها الغربيون الذين لم تتركوا وسيلة للاتصال بالمرأة والاختلاط بها والتأثير عليها وأغوائها إلا فعلتم حتى لم تعودوا تستطيعون أن تعيشوا ساعة نهار أو ليل دون أن تروا المرأة أو تخالطوها منذ تغادرون البيت حتى تعودوا إليه .. أنتم الذين يضج مجتمعكم بالأندية والبارات والمراقص .. وتغص شوارعكم بالأولاد غير لشرعيين تدعون أن دينكم يمنعكم من خيانة الزوجة المريضة .. وكيف ذلك وخيانات الزوجات الجميلات الصحيحات

الشابات تملأ أخبارها أعمدة الصحف والكتب .. وتصك الآذان وتشغل دوائر القضاء .

قال : انني أخبرك عن نفسي .. فأنا أستطيع أن أضبط نفسي وأصبر .

قلت : حسنا .. فكم يبلغ نسبة الذين يضبطون أنفسهم من الغربيين أمثالك بالنسبة إلى الذين لا يصبرون ؟

قال : لا أنكر أنهم قليلون جدا .

قلت : وهل ترى أن التشريع يوضع للقلة التي يمكن أن تعد بعدد الأصابع . أم للكثرة والجمهرة من الناس ؟ وما فائدة التشريع الذي لا يستطيع تطبيقه إلا أفراد محدودون . فسكت وانتهت المناقشة فيما بيننا .

بعد هذا يحق لنا أن نتعجب من إثارة الغربيين للضجة على الإسلام والمسلمين حول تعدد الزوجات ونتساءل : ألا يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم ليسوا على حق في إثارة هذه الضجة ؟ .. ألا يشعرون بأن من يقتصر على أربع خير ممن يجدد كل ليلة زوجة .. وان من يلتزم نحو من يتصل بها بمسئوليات أدبية ومالية أمثل ممن يتخلى أمامها عن كل مسئولية .. ألا يشعرون أن إنجاب نصف مليون ولد بصورة مشروعة أكرم وأحسن للنظام الاجتماعي من إنجابهم بصورة غير شرعية .. وفي اعتقادي أنهم يشعرون بذلك لو تخلوا عن غرورهم من جهة ، وتعصبهم من جهة أخرى .

أما الغرور فهو اعتقادهم ان كل ما هم عليه حسن وجميل .. وان ما يفعله غيرهم من الأمم والشعوب وبخاصة المستضعفة منها سيىء وقبيح .. وأما التعصب فهو الذي ما زالوا يتوارثونه جيلا بعد جيل ضد الإسلام .. ونبيه الكريم .

وأذكر حين كنت فى (دبلن) بأيرلندا عام ١٩٥٦ أن زرت مؤسسة الآباء اليسوعيين فيها ، وجرى حديث طويل بينى وبين الأب المدير لها . .

وكان مما قلته له : لماذا تحملون على الإسلام ونبيه فى كتبكم المدرسية بما لا يصح أن يقال فى مثل هذا العصر الذى تعارفت فيه الشعوب والتقت فيه الثقافات ؟

فأجابنى : نحن الغربيين لا نستطيع أن نحترم رجلا تزوج تسع نساء !

قلت له : وهل تحترمون نبى الله داود ونبيه سليمان ؟

قال : بلى . . وهما عندنا من أنبياء التوراة .

قلت : ان نبى الله داود كان له تسع وتسعون زوجة أكملهن بمائة بالزواج من زوجة قائده (أوريا) كما هو معلوم . . ونبى الله سليمان كانت له كما جاء فى التوراة سبعمائة زوجة من الحرائر ، وثلاثمائة من الجوارى وكن أجمل أهل زمانهن . . فلماذا يستحق احترامكم ؟ من يتزوج ألف امرأة ولا يستحق من يتزوج تسعا احترامكم ؟ من تزوج تسعا . . ثمانية منهن ثيبات وأمهات ، وبعضهن عجائز ، والتاسعة هى الفتاة البكر الوحيدة التى تزوجها طيلة عمره ! »

وهكذا نرى أن كل الافتراءات على الإسلام ونبى الإسلام لا تصمد لمنطق العقل والضمير . . وإنما هى كلمات حاقدة يضمرها الكارهون للإسلام .

فالنبى العظيم الذى كان يعيش حياته كلها للدعوة والعبادة والذى كانت تتورم قدماه من كثرة القيام فى الليل والناس نيام . . رغم أن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . ليس عنده وقت لهذه الأهواء والنزوات التى رماه بها الجاحدون بكل فضل . . والكارهون لكل

فضيلة . . والموتورون والحاقدون الذين لا يعرفون إلا الظلم والظلام . . والمتعصبون الذين أعماهم التعصب وحجبهم عن الحق والحقيقة .

ولو وقفنا عند حديث واحد فقط من أحاديث الرسول ، لرأينا كم كان أعرف الناس بالله . . وأعلمهم وأخشاهم له . . وأكثرهم تقوى وتعبدا له انه يقول ﷺ :

— « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا وبكيتم كثيرا » . . أرى مالا ترون . . وأسمع مالا تسمعون ! أطت السماء ، وحق لها أن تئط . . ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيها ملك ساجد لله . والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا . وما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الطرقات تجأرون (تصرخون) !!

والذى يرميه الجاحدون والمنكرون بحبه للشهوات ، لم يعرفوا عنه كيف كان يبكي وتسيل دموعه خشية من الله عندما يسمع يوما ابن مسعود يتلو قوله تعالى :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة النساء)

ويقول له : أمسك !

ان الرسول العظيم قمة شامخة خالدة . . وكيف لا . . وقد كان خلقه القرآن على حد تعبير أم المؤمنين عائشة .

وتبقى كلمة

عرفنا كيف كرم الإسلام المرأة .

وكيف عرفت من خلاله موضع خطاها فى الحياة .. وأنها حظيت فى ظله بحقوق لم تحصل عليها فى ظل أى قوانين وضعية عرفها العالم القديم أو الحديث .

وان الرسول ﷺ فى سلوكه وتصرفاته واعطائهن الحق فى الحضور إلى الصلاة فى مسجده .. وإلقاء الدروس عليهن كالرجال عندما طلبن منه ذلك لأكبر دليل على أن الرجل والمرأة على خط واحد بما لا يتعارض مع الفطرة التى فطر الله عليها طبيعة كل من الرجل والمرأة .

وان زوجات الرسول ﷺ روين عنه الكثير من الأحاديث الشريفة ، وكثير من هذه الأحاديث يتعلق بما يمكن أن يطلق عليه فقه المرأة المسلمة .. فكن رائدات فى هذا المجال حتى تعرف المرأة أمور دينها ، بل أن السيدة عائشة رضى الله عنها بجانب ما روته من أحاديث كثيرة ، صححت بعض الأحاديث التى رددها الرواة .. فما أكثر ما استوضحت الرسول عن معانى بعض الأحاديث الشريفة ..

فقد قال الرسول ﷺ مثلا :

— « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » .

قالت عائشة : انا لنكره الموت .

قال النبى ﷺ : ليس ذلك . ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، فليس شىء أحب إليه مما أمامه ، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ، وان الكافر إذا حضره الموت بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته فليس شىء أكره إليه مما أمامه ، فكره لقاء الله وكره الله لقاءه » .

ومن تصحيحها لبعض الأحاديث .. انها عندما تناهى إلى سمعها أن

عبد الله بن عمرو بن العاص يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رءوسهن . . أى يقمن بحل ضفائر الشعر حتى يصل الماء إلى جلد الرأس .

فقالت عائشة :

— يا عجبا لابن عمرو ، وهو يأمر النساء إذا اغتسلن ينقض رءوسهن أو ما يأمرهن أن يحلقن رءوسهن . . لقد كنا نغتسل أنا ورسول الله ﷺ وما أزيد على أن افرغ على رأسى ثلاث افراغات .

وعندما سمعت ما رواه أبو هريرة عن الرسول ﷺ انه قال : من أصبح جنبا فلا صوم له .

صححت عائشة ذلك وقالت :

— كان رسول الله ﷺ يدركه الفجر فى رمضان وهو جنب فيغتسل ويصوم .

بل ان الرسول ﷺ أخذ برأى زوجاته فى بعض الأمور . . ومما ترويه كتب السيرة من هذه الحكايات .. ومن هذه الأمور مثلا ان الرسول عندما عقد صلح الحديبية . . ووجد فيه بعض المسلمين استسلاما لقريش ولم يدركوا حكمة من وراء هذا الصلح الذى أقره الرسول ﷺ . . حتى انهم رفضوا أن يحلوا إحرامهم ويذبحوا الهدى . . حتى غضب الرسول ﷺ وعندما سألته زوجته أم سلمة عن سر حزنه ، أشارت إليه . . أن يقوم هو بنفسه بذبح هديه . . وحلق رأسه . . فقام وفعل ذلك فتبعه المسلمون .

ويحلل هذه القصة الشيخ محمد متولى الشعراوى فى كتابه (المرأة فى القرآن الكريم) بقوله :

إن رسول الله ﷺ أمر أم المؤمنين بأن يذبحوا الهدى ويحلوا حرامهم ولكن أحدا لم يفعل ذلك فدخل الرسول ﷺ على زوجته (أم سلمة)

إحرامهم وهو شديد الغضب فقالت : ما بك يا رسول الله . . فلم يرد فكررتها عدة مرات حتى قال ﷺ هلك المسلمون . . أمرتهم بأن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا فقالت أم سلمه : يا رسول الله لا تلمهم فإنه داخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح . . يا نبى الله أخرج ولا تكلم أحدا منهم وانحر هديك . . واحلق رأسك .

ففعل رسول الله ﷺ فنحروا وحلقوا . . وهكذا نرى أن رسول الله ﷺ أخذ برأى روجته أم سلمة فى أمر من أشق الأمور وأشدها ولو كان عقلها ناقصا نقص ذكاء أو نقص استيعاب ما نزل رسول الله ﷺ على رأيها . . ولكن نقص العقل فى الحديث الشريف : معناه انها تفعل أشياء يقف العقل عندها وإنما تفعلها بالعاطفة . .

ولكى نفهم معنى الحديث الشريف لابد أن نعرف ما هو العقل ؟ ليفهم الناس من التسمية مهمة العقل : ان العقل مأخوذ من العقال . . وهو مقود الجمل الذى لا يجعله يسير على غير هدى إنما يخضعه لمشيئة راكبه . . الجمل لو ترك على هواه بغير عقال لجرى هنا وهناك . . وكلما رأى عشبا مثلا انطلق إليه يسير يمينا وشمالا ولا يصل أبدا إلى المكان الذى يريد صاحبه أن يصل إليه ، ولكن مهمة العقال أن يحكم حركة الجمل بحيث يسير فى الطريق المرسوم الذى يوصله إلى الغاية المطلوبة ، فإذا انحرف يمينا أو يسارا استخدم راكبه العقال ليجعله يسير فى الطريق السليم ، وهذه مهمة العقل . . مهمته أن يكبح شهوات النفس ، ويجعلها تسير فى الطريق المرسوم . . أما الرجل فحياته عقلانية أكثر من المرأة لأن مهمته هى السعى على الرزق ، فلابد أن يرتب الأشياء ترتيبا عقليا لا مكان فيه للعاطفة ، فإذا لم يكن معه إلا بضعة جنيهات حتى آخر الشهر وجاء ابنه وطلب منه شيئا فإنه

لا يعطيه .. فإذا ألح فى الطلب انفعل عليه وضربه لماذا ؟ لأنه حكم عقله بما هو مطلوب منه ، وأخذ الطريق الذى لا عاطفة فيه .

ويسوق الشيخ الشعراوى هذا الحوار بين الرسول ﷺ وبين أم سلمة .. حيث يوضح لها الرسول الكثير من الأمور .

قالت أم سلمة لرسول الله ﷺ أخبرنى يا رسول الله عن قول الحق عز وجل : ﴿ حور عين ﴾ .. فقال ﷺ ﴿ حور عين ﴾ معناها بيض .. و ﴿ عين ﴾ .. أى ضخام ثغر .. الحوراء فى منزلة جناح النسر .. قالت أم سلمة .. أخبرنى يا رسول الله .. عن قوله تعالى : ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ .. فقال النبى ﷺ : صفاؤهن كصفاء الحر (أى اللؤلؤ الحر) الذى فى الأصداف لا تمسه الأيدى .. وقالت أم سلمة .. يا رسول الله أخبرنى عن قوله تعالى : ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ .. فقال رسول الله ﷺ خيرات الأخلاق حسان الوجوه .. فقالت أم سلمة .. فأخبرنى يا نبى الله عن قوله تعالى : ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ .. فقال رسول الله ﷺ : رقتهن كرقة الجلد الذى فى داخله البيضة فيما يلى القشرة .

وقالت أم سلمة .. أخبرنى يا رسول الله عن قوله تعالى : ﴿ عربا أترابا ﴾ .. قال رسول الله ﷺ : هن اللاتى قبضن فى دار الدنيا عجائز رمضا شمطا ، خلقهن الله يوم القيامة بعد الكبر فجعلهن عذارى .. عربا متعشقات محببات .. أترابا على ميلاد واحد .. أى فى سن واحدة .. فقالت أم سلمة يا رسول الله .. أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ .. قال النبى ﷺ : بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل (الظهارة على البطانة) .. فقالت أم سلمة : يا رسول الله وبم ذلك ؟ قال ﷺ : بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن لله عز وجل ألبس الله وجوههن النور .. وأجسادهن الحرير .. بيض الألوان .. خضر

الثياب .. صفر الحلى .. مجامرهن الدر .. وأمشاطهن الذهب .. يقلن نحن الخالدات .. فلا نموت أبدا ، ونحن الناعمات .. فلا نيبس أبدا .. ونحن المقيمات فلا قطعن أبدا .. ونحن الراضيات فلا نسخط أبدا .. (طوبى لمن كنا له وكان لنا) .

قالت أم سلمة يا رسول الله .. المرأة منا قد تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعة .. ثم تموت فتدخل الجنة .. فمع أى الأزواج تكون ؟

قال النبى ﷺ : يا أم سلمة انها تخير .. فتختار أحسنهم خلقا .. فتقول يا رب .. ان هذا كان أحسن خلقا معى فزوجنيه . يا أم سلمة ان حسن الخلق يأتى بخير الدنيا والآخرة ..

وهكذا نرى ان قول رسول الله ﷺ : ناقصات عقل ودين معناه ان المرأة تفعل الأشياء بعاطفة يقف العقل عندها .. أما مسألة الدين فهى بحكم خلقتها .. تمر عليها أيام فى الدنيا لا تؤدى فيها صلاة ولا صياما .. وهذا ليس عيبا .. لان الله خلقها هكذا فهذه طبيعتها لتؤدى مهمتها فى الحياة . إذن فالمسألة شرح لطبيعة المرأة .. وليس محاولة للانتقاص منها وإلا لما كان رسول الله ﷺ قد أخذ برأى أم سلمة فى صلح الحديبية .. وما كان قد قال عن عائشة رضى الله عنها : (خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء) فقد كان وجهها رضى الله عنها يميل إلى الاحمرار .

ان من يحاول تفسير هذا الحديث النبوى الشريف على انه طعن فى المرأة .. يكون قد جانبه التوفيق .. ولم يفهم معنى الحديث .. ولا ما هو المقصود بالنقص فى العقل والدين !

ان الله سبحانه وتعالى .. قد جعل لكل من الرجل والمرأة مهمته فى الحياة .. وتم الخلق ليناسب هذه المهمة .. فالرجل لأنه يسعى فى سبيل الرزق .. محتاج لأن يحكم عقله وحده دون عاطفة .. حتى

يستطيع أن يحصل على الرزق .. ويوفر للأسرة احتياجاتها ، والمرأة لأنها التى تحنو وتربى .. وهى السكن ، لابد أن تكون عاطفية .. لتؤدى مهمتها .. ومن تمام الخلق .. أن يكون كل مخلوق .. ميسرا لما خلق من أجله » .

* * *

ان الإسلام هو دين العلم والحضارة والتقدم ، والإسلام هو الدين الذى كفل للمؤمن به كيف يكون على بصيرة من أمر دينه وأمر دنياه فرسم المنهج السليم للسمو الروحى .. كما رسم المنهج السليم للعيش فى الحياة بمنهج الله .. فتلتقى فيه حضارة المادة مع السمو الروحى .. فترتقى الحياة .. ويسمو الإنسان ويبنى المجتمع السليم الذى ينهض على أساس بالغ الروعة والرقى .

وعندما ننظر اليوم إلى تخلف المسلمين .. ووجودهم جميعا فى دائرة العالم الثالث فلا ينبغى أن يخطر على البال ان هذا التخلف راجع إلى تمسكهم بالدين ولكن هذا التخلف بسبب ابتعادهم عن الدين .. وبسبب عدم فهمه فهما واعيا مستنيرا ..

فالتمسك بجوهر الإسلام هو المطلوب ..

والبعد عن الشكليات والحوار فيما لا يفيد يضر بقضية الإسلام .

فالإسلام له ثوابت ومتغيرات .

الثوابت لا يختلف عليها اثنان .. فلا أحد يختلف على وحدانية الله ، وأن محمدا عبده ورسوله .. ولا أحد يختلف على أن الإسلام بنى على أركان خمسة : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا ولا أحد يختلف على المواريث كما شرعها الله . ولا على الحدود كما أقرتها الشريعة .

أما الأمور التى تحتاج الى الاجتهاد فعلى كل عصر من العصور أن يأخذ بمقاييس الاجتهاد فإن الاختلاف فيها لا يشكل ضررا ، بل على العكس فإن الخلافات تنمى حركة الاجتهاد . . ولا يمس جوهر الدين . .

يوم نعى كل ذلك .

ويفهم كل منا دوره فى الحياة . . ونسير من خلال رؤية إسلامية مستنيرة . . يومها يمكن أن نقول أننا عرفنا موضع خطانا فى الحياة ، واننا نسير نسابق ظلنا لنسبق الحضارات التى سبقتنا . . ونأخذ منها ـ كما أخذوا منا ـ عندما تألقت الحضارة الإسلامية ، ونضيف إليها . . ونكون مشاركين بالفعل فى صنع الحياة . . ولسنا مجرد مقلدين للغرب . . نأخذ مايفيدنا ونطوره من خلال منظور إسلامى مستنير . . المنظور الإسلامى يعنى ألا نغفل قيم الإسلام وتعاليمه . .

ويوم نطير بجناحى التقدم العلمى والسمو الروحى . . سوف نصل إلى مكانة لم تكن تخطر على البال . . ويصبح الجدل حول بديهات الإسلام لا معنى له . . ومن هذه البديهات أن الحياة رجل وامرأة . . وبالتكامل بينهما . . نصنع الحياة . . ونبنى الغد . . ويكون لنا المستقبل والمشرق بإذن الله .

المراجـع

- القرآن الكريم .
- كتب التفسير - الطبرى وابن كثير والسيوطى
- الأدب المفرد - للإمام البخارى
- أسد الغابة - لابن الأثير
- أحياء علوم الدين - للإمام الغزالى
- عبقرية محمد - عباس محمود العقاد
- الاجتهاد - الدكتور عبدالمنعم النمر
- خاتم النبيين - الشيخ محمد ابو زهرة
- محمد رسول الله والذين معه - عبدالحميد جودة السحار
- سيرة النبى العربى - أحمد التاجى
- قطوف من ادب النبوة - احمد حسن الباقورى
- القرآن الكريم - تفسير الشيخ محمود شلتوت
- القرآن والتفسير - الدكتور محمد عبدالمنعم القيعى
- فتاوى - الدكتور عبدالحليم محمود
- الحديث النبوى وعلم النفس - د. محمد عثمان نجاتى
- المرأة فى القرآن الكريم - الشيخ محمد متولى الشعراوى
- النبى فى القرآن - الشيخ جاد الحق على جاد الحق
- حقوق الإنسان فى الإسلام - د. على عبدالواحد وافى
- المرأة فى الإسلام - الشيخ محمد الغزالى .

د. محمد سيد طنطاوى ، د. احمد عمر هاشم

- القرآن والمرأة - الشيخ محمود شلتوت
- فى محكمة التاريخ - د. عبدالودود شلبى
- الإسلام ما هو - د. مصطفى محمود
- النبى زوجا - نشات المصرى
- تغريدة السيرة - الشيخ محمد عليش عبيد
- الفتوحات العربية الكبرى - جون باجوت جلوب

تعريب وتعليق خيرى حماد

محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة ٥
١ ـ قبل الإسلام ١١
٢ ـ مشرق النور ٢١
٣ ـ المرأة .. فى عصر النبوة ٣٣
٤ ـ كرامة المرأة المسلمة ٤٩
٥ ـ □ المرأة المسلمة فى القرآن؟ ٥٩
□ قضايا متعلقة بالمرأة ٧٣
□ الحجاب ٧٤
□ النقاب ٨٠
□ مصافحة المرأة ٨١
□ صوت المرأة ٨٢
□ قوامة الرجل ٨٥
□ العصمة .. في يد المرأة ٨٦
٦ ـ أمهات المؤمنين ٨٧
□ خديجة بنت خويلد ٨٩
□ عائشة بنت ابى بكر ١٠٣
□ حفصة بنت عمر ١١٥
□ ام المساكين زينب بنت خزيمة ١١٩
□ ام المؤمنين ام سلمة ١٢٣
□ زينب بنت جحش ١٣١
□ جويرية بنت الحارث ١٣٩
□ صفية بنت حيى بن اخطب ١٤٣
□ ام حبيبة .. بنت ابى سفيان ١٤٩
□ ميمونة بنت الحارث ١٦١
٧ ـ افتراءات .. وحقائق ١٦٧
وتبقى لنا كلمة ١٨٧
المراجع ١٩٥

كتب صدرت للمؤلف

١ ـ آخر رسل السماء	مكتبة غريب
٢ ـ نساء فى حياة الأنبياء	"
٣ ـ مشاهد من حياة الرسول	"
٤ ـ بيـوت الله	"
٥ ـ خـلافـة عمـر	"
٦ ـ خـلافـة عثمـان	"
٧ ـ خـلافـة على	"
٨ ـ حجة الإسلام ـ الإمام الغزالى	"
٩ ـ قمم فى الدين والأدب والفلسفة	"
١٠ ـ مع مشاهير الفكر والأدب	دار المعارف
١١ ـ مصطفى محمود ـ مفكرا	دار الفيصل
١٢ ـ السحار والفكر الإسلامى	مكتبة مصر
١٣ ـ الشيخ الشعراوى وحقائق الإسلام	مكتبة غريب
١٤ ـ حديث الروح مع الشيخ الشعراوى	دار المعارف
١٥ ـ الإسـلام وهؤلاء	دار الفيصل
١٦ ـ المبشرون بالجنة	مكتبة غريب

تحت الطبع

١ ـ إبحار فى عالم الصوفية .

٢ ـ زكى نجيب محمود مفكرا .